مجلة مركز بحوث و دراسات المدينة المنورة

العدد الثالث - شوال - ذو الحجة ١٤٢٣ هـ ديسمبر - فبراير ٢٠٠٣ م

- مسألة مضاعفة الصلوات في المساجد الثلاثة هل تقع في النوافل ؟
- محدث الحرمين عمر بن حمدان المحرسي
- المدينة المنورة في عيون الشعراء
- وصف المدينة عام ١٢٣٠هـ لبركهارت
- المجالس الثقافية المعاصرة في المدينة المنورة
- بدايات الحياة العلمية والأدبية للمرأة في المدينة المنورة
- ملامح النهضة الصناعية بمنطقة المدينة المنورة

وصف المدينة المنورة عام ١٢٣٠هـ لبركهارت

د. عبد الباسط عبد الرزاق بدر

مدير عام مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كانت الجزيرة العربية قبل قرنين منطقة مجهولة لمعظم الأوربيين ، فباستثناء الموانئ التي رست فيها السفن الأوربية لم يصل إليها المستكشفون والرحالة ؛ بسبب طبيعتها الصحراوية القاسية ، ونفور أبنائها من الغرباء المريبين ، وتحريم مكة والمدينة على غير المسلمين .

لذلك تحمس بعض المغامرين للسفر إلى الجزيرة العربية للتعرف عليها ، واستعدوا له استعداداً كبيراً ؛ فدرسوا اللغة العربية ، وأمضوا مدة من الزمن في مدن عربية ، يعيشون الحياة اليومية ، ويتدربون على استخدام لهجاتها المحلية ، وتعرفوا على دقائق الشخصية العربية ، وقرأوا تاريخ المناطق التي سوف يزورونها ، ودرسوا شيئًا عن الإسلام ، وأوغل بعضهم - وخاصة الذين خططوا لزيارة مكة والمدينة - فادعوا اعتناقه ، وغيروا أسماءهم إلى أسماء إسلامية ، وحصلوا على وثائق رسمية بذلك ، وسافروا مع قوافل الحج إلى الحجاز ، ودخلوا مكة والمدينة ، ومكثوا في كل منهما مدة من الوقت ؛ تمكنوا خلالها من دراسة معالمهما ، ورسموا خرائط مفصلة لهما ، ودرسوا أوضاعهما السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، ورصدوا العادات والتقاليد فيهما ، وكتبوا عن ذلك كله كتابات دقيقة مفصلة .

وعلى امتداد القرن التاسع عشر الميلادي - الثالث عشر الهجري - وفد عدد من الرحالة الغربيين إلى الحجاز ، وأقاموا في مكة والمدينة ، وكتبوا عنهما كتابات قيِّمة ، ومن أشهرهم : جوهان بركهارت ، ولويس كنت ، وريتشارد بريتون ، وكريستيان سنوك ، ولكي ندرك قيمة ما كتبوه نذكر أن **تلك الكتابات كانت النافذة**

الكبيرة التي أطلت منها الغرب على المنطقة آنذاك، وأن الصورة التي رسمتها للمنطقة وأهلها هي التي انطبعت في أذهان الأوربيين لفترة طويلة، ورسمت الخطوط العريضة لسياستهم إزاءها، فقد اعتمدت الحكومة الهولندية على آراء سنوك في تنظيم سياستها في الشرق، واستفادت بريطانيا من آراء بركهارت وكنت وبرايتون في التعامل مع حكومة الحجاز الهاشمية، وتكاد تكون آراء كنت وتوصياته في بث النزعة القومية، والثورة ضد العثمانيين تخطيطًا مبكرًا لسياسة بريطانيا مع الشريف حسين.

ولا شك أن كتاباتهم متأثرة - بشكل أو بآخر - بدوافعهم الخاصة، تحمل آثار عقائدهم وتصوراتهم وطبيعتهم الغربية، وليس من الضروري أن نستسلم لها كليًا، ولكنها أيضًا ليست مجموعة أكاذيب مختلقة، بل إنها ضرورية لنا ونحن نبحث عما يغطي ثغرات في تاريخنا المدون، وليس صعبًا على الدارس المحقق أن يميز سلبياتها وينحيها جانبًا؛ فضلاً عما يمكن أن يستفيده من دراسة تلك السلبيات نفسها في **فهم الرؤية الغربية وتحليلها للشخصية العربية المسلمة**، وفي تفسير الأحداث التي بنيت على تلك الرؤية وذاك التحليل.

وتتجلى صحة هذه المقولة في الكتابات التي نعرضها في الصفحات القادمة للرحالة بركهارت عن المدينة المنورة قبل قرنين تقريبًا، والتي وصفها فيها وصفًا دقيقًا، جمع فيه بين ما رآه بعينيه، وجربه بنفسه، وقاسه بقدميه، وسمعه من مرافقيه، والتقطه ممن لقيهم في المدينة المنورة.

صاحب الرحلة

يعد جوهان لودفيج بركهارت John Lewis Burckhardt من أعلام الرحالة والمستشرقين في القرن التاسع عشر الميلادي، الثالث عشر الهجري، ومن رواد الرحالة الغربيين الذين زاروا المدينة المنورة وكتبوا عنها.

وبركهارت سويسري الأصل، ولد بمدينة لوزان عام ١٧٨٣م/ ١١٩٩هـ، وكان والده ضابطًا في الجيش، وعندما احتلت القوات الفرنسية بلاده نزح إلى ألمانيا بأسرته، واستوطن في مدينة ليبزج، فنشأ بركهارت فيها، وتعلم في مدارسها إلى نهاية المرحلة الثانوية، ثم درس في جامعة جوتنجن وتخصص في

الكيمياء ، وبعد تخرجه انتقل إلى إنكلترا ، وكانت الهيئات الاستشراقية ترسل بعثات إلى مناطق مختلفة في آسيا وأفريقيا ، فاتصل بها ، وعرض عليها خدماته ، فرحبت به الجمعية الأفريقية ، وقدمت له المساعدات اللازمة ليقوم برحلة استكشافية إلى تمبكتو ، وكانت الجمعية قد أرسلت إليها بعثات من قبل ، ولكنها أخفقت وهلك أعضاؤها ، فقرر بركهارت أن يرحل إليها بصحبة قافلة الحج التي تعود من مكة إليها كل عام ، وهذا يقتضي أن يرحل أولاً إلى الحجاز ، أو إلى أية محطة قريبة منها تتوقف فيها القافلة ليسافر معها .

أعد بركهارت نفسه لهذه الرحلة إعداداً جيداً ؛ **فدرس اللغة العربية والطب ، وشيئًا عن الإسلام ، واتخذ شخصية طبيب مسلم ، وتسمى باسم إبراهيم بن عبد الله** ، وغادر بريطانيا في شهر مارس آذار عام ١٨٠٩م ، ويوافق شهر صفر ١٢٢٤هـ إلى جزيرة مالطا ، ومنها إلى سورية ، واستقر في مدينة حلب ، وواصل فيها دراسة اللغة العربية والشريعة الإسلامية في حلقات المشايخ مدة عامين ، وخلال هذين العامين تجول في بادية الشام ، واختلط بالقبائل البدوية وخاصة قبيلة عنزة ، ووصل إلى مدينة البتراء الأثرية في الأردن ، ولم يكن الأوربيون قد وصلوها بعد ، فاعتبر رائد مكتشفيها .

وفي شهر فبراير شباط عام ١٨١٢م الموافق لشهر صفر ١٢٢٧ سافر إلى مصر ؛ ليرافق قافلة تمبكتو العائدة من الحج ، ولكنه لم يدركها ، فأخذ يفتش عن طريق آخر من جنوبي مصر إلى غرب إفريقيا ، فتوغل جنوباً ، ووصل بلاد النوبة ، وتجول فيها ، وأدرك أنه لن يجد الطريق الذي كان يأمله ، فغير خطته ، وقرر أن يسافر مع قافلة الحج السودانية إلى الحجاز ؛ حيث يلتقي بقافلة تمبكتو ويرافقها في طريق عودتها .

أبحر بركهارت من ميناء سواكن السوداني مع قافلة الحج إلى جدة في شهر يونيو عام ١٨١٤م ، ويوافق شهر رجب ١٢٢٩ ، وسافر من جدة إلى الطائف ، وقابل محمد علي باشا ؛ الذي وصل إليها في ذلك الوقت لمحاربة الدولة السعودية الأولى ، وشك محمد علي في أن يكون بركهارت جاسوساً لبريطانيا ،

ولكن طبيباً أرمنياً كان يرافق حملة محمد علي أنقذ بركهارت وحصل له على مساعدة مالية ، وخطاب يبين أنه مسلم وفي حماية الباشا .

انتقل بركهارت إلى مكة ، ومكث فيها أكثر من أربعة أشهر ، اطلع خلالها على معالمها ، والحياة فيها ، وسجل ملاحظاته عنها ، ورسم خريطة مفصلة لها .

وفي الخامس عشر من شهر يناير كانون الثاني عام ١٨١٥م الموافق ٣ صفر ١٢٣٠هـ غادر مكة إلى المدينة المنورة في صحبة قافلة الحجاج الذين أتموا حجهم وقصدوا زيارة المسجد النبوي والسلام على رسول الله ﷺ ، فوصلها صباح الثامن والعشرين من يناير كانون الثاني ١٨١٥م الموافق ١٦ صفر ١٢٣٠هـ ، وبعد وصوله بقليل أصيب بالحمى ، وعانى منها معظم مدة إقامته فيها ، ورغم ذلك **تمكن من زيارة معظم معالمها ، والاطلاع على جوانب الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية فيها ، ورسم لها خريطة تفصيلية** ، وفي الحادي والعشرين من شهر نيسان عام ١٨١٥م الموافق ١١ جمادى الأولى ١٢٣٠هـ غادر المدينة إلى ينبع ، ومنها إلى مصر ، فكانت مدة إقامته في المدينة ثلاثة وثمانين يوماً .

وصل بركهارت إلى مصر في شهر يونيو عام ١٨١٥م ، الموافق جمادى الآخرة ١٢٣٠هـ ، وكانت الأمراض التي أصابته قد أرهقته ، وصادف وصوله انتشار الطاعون في القاهرة ، فخرج منها إلى صحراء سيناء ، واختلط بقبائلها البدوية مدة شهرين ، ثم عاد إلى القاهرة ، وعكف على إكمال كتبه ، وانتظار تحسن صحته ليقوم بالرحلة التي جاء من أجلها إلى تمبكتو ، ولكن صحته استمرت في التدهور ، ووافاه الأجل في ٦ نوفمبر عام ١٨١٧م ، الموافق ٢٦ ذي الحجة عام ١٢٣٢هـ ، ودفن في مقابر المسلمين ، وكتب على قبره : هذا قبر المرحوم إلى الله تعالى الشيخ حاج إبراهيم المهدي بن عبد الله بركهارت اللوزاني ، تاريخ ولادته ١٠ محرم ١١٩٩ ، وتاريخ وفاته إلى رحمة الله بمصر المحروسة في ٢٦ ذي الحجة عام ١٢٣٢هـ[1] .

(١) الأعلام ٢٦٤/٨ ، وانظر : المستشرقون ، لنجيب العقيقي ، ط٣ ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة ٤٧٥/٢-٤٧٦ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ترك بركهارت عدة مؤلفات مهمة ، طبعتها الجمعية الجغرافية الملكية في بريطانيا ، وهي :

١ - الرحلة إلى بلاد الشام ، طبع عام ١٨١٤م .

٢ - رحلات إلى الجزيرة العربية ، طبع عام ١٨٢٨م .

٣ - مجموعة أمثال عربية مع ترجمتها وشرحها بالإنكليزية ، طبع عام ١٨٣٠م .

٤ - سجلات أسفار في الشرق الأدنى والاتصال بالبدو الوهابيين ، طبع عام ١٨٣١م ، وقد ترجمه الدكتور عبد الله صالح العثيمين بعنوان : «موارد لتاريخ الوهابيين» وطبعه في الرياض عام ١٤٠٥هـ ، وطبعه طبعة ثانية عام ١٤١٢هـ .

ويعد بركهارت من أوائل الرحالة المستشرقين الذين كتبوا عن الدعوة السلفية والدولة السعودية الأولى . وفي كتاباته إشارات تاريخية وتحليلات وأحكام قيمة ، كما أن فيها مفهومات خاطئة ، وقد علق الدكتور العثيمين على تلك المفهومات تعليقات قيمة في ترجمته للكتاب المذكور .

سجل بركهات رحلته على شكل يوميات ، وحرص على ذكر اليوم والساعة والوقت ، واتجاه السير ، ووصف ما كان يشاهده بدقة ، وتحرى عن كل منطقة مرَّ بها ، وعن القبائل التي تسكنها ، والصفات التي تتميز بها ، ويبدو أنه استفاد من مرشدي القافلة الخبراء بالطريق والمناطق ، كما استفاد من اختلاطه السابق بقبائل بادية الشام ، ومن المعلومات التي جمعها من الكتب ، والتي أشار إليها مرات عدة في كتاباته ، وقارن بين ما جاء فيها وما يراه ، ورصد التغيرات إن وجدت .

ولما كانت رحلة بركهات في وقت شهدت فيه المنطقة تغيرات سياسية ضخمة ، وهي انحسار الدولة السعودية الأولى عن الحجاز ، واستيلاء قوات محمد علي باشا عليها ، فقد **حرص بركهارت على تسجيل آثار تلك التغيرات في المنطقة** ، كما حرص على تسجيل الأحداث التي ما زال الناس يتناقلون أخبارها ، والتي جرت في العهد السعودي . وقارن بين العهدين : السعودي

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

والمصري / العثماني الجديد ... ولا تخلو هذه المقارنات وتلك التسجيلات من فوائد كبيرة ؛ تساعدنا على إعادة تقويم بعض الأحكام التاريخية .

المدينة المنورة في كتابات بركهارت

شغل حديث بركهارت عن المدينة سبعين صفحة من كتابه رحلات إلى الجزيرة العربية ؛ حيث وصف بشيء من التفصيل مظهرها العمراني العام كما يراه المقبل عليها ، وسوريها الخارجي والداخلي ، وقاس محيط السور الخارجي بالخطوة فوجده ألفين وثمانمائة خطوة تقريباً ، ووصف أبواب السورين ، وقارن بين باب المصري في سور المدينة ، وباب الفتوح في سور القاهرة[1] ، وذكر أحياء المدينة حسب توزعها بين أبواب السورين ، وأبدى إعجابه بالعمارة المدينية ، وشبهها بعمارة مدينة حلب ، ولاحظ آثار الحرب التي أشعلها جيش محمد علي باشا في خراب بعض بيوت المدينة أو هجرها ، أو إهمال صيانتها ، وربط بين قلة الزوار في سنوات الحرب وبعدها ، وشح موارد أهل المدينة ؛ الذين أهملوا الإنفاق على بيوتهم عندما لم يتحقق لهم الموارد التي اعتادوا عليها من قبل .

وقد استقصى بركهارت المعلومات عن أهل المدينة ، وسأل من لقيهم منهم عن أصولهم وقبائلهم ، والبلاد التي وفدوا منها ، وعن بقية الأنصار والحسينيين الذين قرأ عنهم ، وساق معلومات جيدة عن أهم عائلات المدينة ، وتحدث عن بعض طبائعهم وعاداتهم الاجتماعية ، ومدى تمازجهم مع الآخرين ، وخاصة المجموعات التي تنتمي إلى أصول هندية وأوربية وأفريقية ، وتحدث عن خليط الأزياء الذي رآه في سكان المدينة ، ووصف الزي المدني ، وأعجب بحسن ثياب أهل المدينة بعامة ، وبأثاث بيوتهم ، وفضله على ما رآه في مكة ، ولكنه لم يعجب بطعامهم ، ووصفه بأنه فقير ، أي قليل التنوع ، وأثنى على نساء المدينة ، ووصفهن بالعفة والاحتشام وحسن السيرة ، وتحدث عن مهن أهل المدينة ، وانتقد ندرة الحرفيين فيهم ، وتكبرهم عن العمل في

(١) انظر : رحلة بركهارت (John Lewis Burckhardt, Travels in Arabia, Henry Colborn. London 1829 , pp323) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المهن الأساسية ، واعتمادهم على ما يصلهم من صدقات ومخصصات في الصرة السنوية ، وقرر أن هذه الأموال شجعتهم
على الكسل ، غير أن بعضهم اهتم بالزراعة وعمل فيها ، واستنتج من قلة الخيل أن المدنيين يميلون إلى السلم ويكرهون الحرب ، وعلل كثرة الحمير بفائدتها للنقل والزراعة ، وتحدث عن كراهيتهم للكلاب وطردها ، وتخصيص يوم في السنة للتفتيش عنها وإجلائها أو قتلها ، ووصف ما شهده من احتفالات أهل المدينة ، وخاصة في ذكرى المولد النبوي ؛ حيث تعطل الأعمال ، ويلبس الناس أفضل ثيابهم ، ويتبادلون التهاني ، وأعجب بما رآه من موقف أهل المدينة من الموت ، وتجلدهم وأسلوب عزائهم ، وعدم نوح نسائهم ، وجنازاتهم الوقورة ، والحزن الهادئ الذي يسود ذوي المتوفى ، وقارن ذلك بعادات وطقوس الجنائز الغربية ، ورأى أن الجنائز المدنية أكثر تعبيراً عن المشاعر الصادقة .

واهتم بالحالة الصحية لأهل المدينة ، وأهم الأعراض والأوبئة التي تفشت فيهم ، وقد عانى هو نفسه من الحمى معظم فترة إقامته .

ومن الإنصاف أن نقول : **إن ما كتبه عن وصف المدينة وسكانها يعد دراسة شاملة ومتأملة لأحوالها العمرانية والاجتماعية والاقتصادية .**

كما اهتم **بالمسجد النبوي** ، ووصف حالته العمرانية ، وقارن ما شاهده بما قرأه في كتاب السمهودي ، واتهم السمهودي بالمبالغة في إطراء المسجد ، وقرر أن عمارته متواضعة لا تقاس بالعمارات الدينية المتميزة في أوربا ، وأن الزخرفة فيه لا تعادل زخارف كنيسة أثرية في أوربا ، ولخص تاريخ عمارة المسجد النبوي من كتابات السمهودي .

ولم يكتف بركهارت بوصف ما كان يراه أو يسمعه ، **بل كان يحاكمه بمقاييسه أحيانًا ، ويحكم عليه ، وينتقد ما يراه من خلل أو تقصير** ، فقد أثر فيه مظهر بعض الحجاج الفقراء وما بدا عليهم من آثار الفاقة ، وانتقد الخلفاء والسلاطين لعدم اهتمامهم بهم ، وبنائهم بيوتًا خاصة تهيئ لهم المأوى والطعام ، وتساعدهم على أداء حجهم[١] .

(١) انظر : الرحلة ص ٣٠٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كما انتقد حكام المنطقة آنئذ لسوء إداراتهم وتسلطهم ؛ حتى إن المواطن يعيش في حالة خوف على ممتلكاته من جشعهم ، وقلق على مستقبله ؛لأنه لا يملك نظاماً للتقاعد أو ضماناً لمساعدته في شيخوخته[١] .

وتوقف عند شخصية أحد المتنفذين في المدينة اسمه حسن قلعي ، وعده نموذجًا لطغيان السلطة وتلونها ، فقد استطاع هذا الشخص أن يكون المستفيد الأول في المدينة قبل العهد السعودي ، ثم بايع السعوديين عندما بسطوا سلطتهم على المدينة ، وسلك مسلكهم ليحافظ على سلطانه ، وعندما جاءت جيوش محمد علي باشا تحول إليها ، وصار أحد رجالاتها المتسلطين[٢] .

ويبدو أن بركهارت لم يدرك نهاية حسن قلعي عندما أمر محمد علي بالقبض عليه وقتله ، ولكنه رأى آثاره وهو في نفوذه ، ولمس تسلطه على أهل المدينة وممتلكاتهم .

وعرض بركهارت خلال ملاحظاته الأحوال العامة في المنطقة خلال العهد السعودي ، وتتبع حركة الدولة السعودية الأولى بدقة[٣] ، **وأشاد بما تحقق فيها من أمن للبلاد والعباد ، وشهد بنجاح الأسلوب الذي اتبعه رجالها في القضاء على الفوضى والاضطرابات** ، والاعتماد على القبائل نفسها التي تبعت دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية في تثبيت الأمن ، والتي يسميها بالاسم الذي أشاعه العثمانيون عنها (الوهابية) ، ورفض المقولات التي تتهمهم بأنهم كانوا يفرضون الضرائب المرهقة على الناس[٤] ، ووصفها بأنها إشاعات غير صحيحة ، وأشاد بجهود السعوديين في تحقيق الاكتفاء الذاتي والاستغناء عن واردات الشام ومصر قدر الإمكان ، والالتفات إلى نجد والاستفادة من منتجاتها الزراعية والمواشي ، وتواتر القوافل التجارية منها إلى أسواق الحجاز لتوفير المواد الأولية اللازمة[٥] .

---

(١) انظر : الرحلة ص ٣٧٥ .
(٢) انظر : الرحلة ص ٣٩٦ .
(٣) انظر : الرحلة ص ٣٠٦ .
(٤) انظر : الرحلة ص ٣٠٨ .
(٥) انظر : الرحلة ص ٣٨٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وعندما وصف الحالة الاقتصادية للمدينة لحظ أثر حملة محمد علي باشا في اضطرابها ، فقد اختفت الحاجات الأساسية من الأسواق أو شحت ، وارتفعت الأسعار ، وتلاعب بعض التجار بها ، وتسلطت الحملة على الجمال ، وسخرتها لنقل جنودها وعتادها ، والمحتسب الذي يفترض أن يضبط الأسواق لا سلطان له عليها[١] .

ولحظ غياب بعض الخدمات الضرورية التي يحتاجها الزوار ؛ مثل غسيل الثياب ، فلا توجد محلات عامة لذلك ، وعلى كل حاج أن يغسل ثيابه بنفسه ، أو يتدبر أمره مع الأسرة التي يسكن لديها ، وكذلك خدمات الطعام ؛ فلا توجد مطاعم عامة مناسبة ؛ فضلاً عن ندرة المهن الحرفية ؛ كالنجارة والحدادة ، التي يترفع المدنيون عن العمل فيها ، وانتقد الأسر المدنية التي لا تربي أولادها على الاحتراف ، وتتركهم ينشأون كسالى ، معتمدين على أموال الصرة ، وعلى رحلات الاستجداء إلى القسطنطينية وغيرها من البلاد ، واستثمار القداسة التي ينظر بها المسلمون إلى المدينة ، والاحترام الذي يكنونه لأهلها ؛ فيعطونهم ، أو يوظفونهم أئمة في مساجدهم لبعض الوقت ، ويرجع هؤلاء بأموال وهدايا كثيرة ، كما أن بعض المدنيين يقيم علاقة وشيجة مع الزوار الذين يُسكنونهم في بيوتهم ، فيرسل هؤلاء إليهم الأموال سنوياً مع الحجاج الآخرين ليذكروهم في الدعاء ، وقد شكا بعض أهل المدينة من أن سنوات الحكم السعودي والحرب التي تلتها قطعت أو خففت تلك الموارد ، وأن الكثيرين توقفوا عن إرسال عطاءاتهم السنوية .

ويبدو أن بركهارت اطلع أو سمع **عن سوء توزيع أموال الصرة والعطايا** التي ترد من العاصمة العثمانية ، وأن بعض المتنفذين والأغنياء يستولون على قدر مهم منها ، ولا يبقى للفقراء المحتاجين إلا الفتات[٢] .

وتوقف بركهارت **عند تصرفات بعض الزائرين** ، ولاحظ أن الزنوج الأفارقة يفتقرون إلى العلم والمعرفة ، وأن عقائد بعضهم مضطربة ؛ حتى ليكادوا

(١) انظر : الرحلة ص ٣٧٧ .

(٢) انظر : الرحلة ص ٣٧٩ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يؤلهون الرسول ﷺ[1] ، كما أن بعضهم الآخر ممن بقي في المدينة واستوطنها لا يتورع عن صناعة الخمر وبيعه بشيء من الحرص .

غير أن ملاحظات بركهارت لم تسلم من آثار عقيدته النصرانية ، فقد احتكم في بعض آرائه إلى مقاييسها ، واتخذ في بعضها الآخر مواقف متصلبة لا تخلو من العدوانية .

فعندما عرض للزخارف والنقوش على أعمدة وسقف الروضة في المسجد النبوي استقلها ، وقارنها بزخارف الكنيسة الكاثوليكية المبهرة ، وعد بساطتها من قلة اهتمام المسلمين وضعف التقوى لديهم ، وفسر غلبة الرسوم النباتية فيها بأنها تساعد خيال المسلم على تصور جنات عدن[2] .

ورغم قراءاته الكثيرة في المصادر الإسلامية فإنه **لم يحسن فهم وظيفة المسجد** ، والنهي عن المبالغة في زخرفته ، والفروق الواضحة بينه وبين الكنائس ، كما أنه خلط بين الأحكام التي وردت فيها نصوص من القرآن والسنة ، وبين أقوال العامة وأفعالهم أحياناً ، ففسر فضل الصلاة في المسجد النبوي بأنه من تحريضات العامة[3] .

ووضع في رأس أسباب ضعف الحالة الاقتصادية غياب نظام الفائدة (الربا) ، والحظر الذي فرضته الدولة العثمانية على البنوك الربوية[4] .

وتظهر الملامح العدائية في اتهامه لأهل الشرق عامة بأنهم لا يملكون إلا القليل من الشرف والتقوى والإحسان ، وأنه متركز في الفقراء والبلهاء[5] .

ولكن باستثناء هذه السلبيات القليلة يبقى **وصفه للمدينة من أشمل وأدق ما وصلنا من عصره ، وتبقى تحليلاته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية صحيحة** إلى حد كبير ، تساعدنا على استجلاء صورة للحياة في المدينة في فترة شهدت تحولات كثيرة ، وتأثرت بتغير السلطة من العثمانيين إلى السعوديين ، ثم إلى محمد علي باشا .

---

(١) انظر : الرحلة ص ٣٨٢ .

(٢) انظر : الرحلة ص ٣٧٧ ، ٣٣٨ .

(٣) انظر : الرحلة ص ٣٤٠-٣٤١ .

(٤) انظر : الرحلة ص ٣٧٤ .

(٥) انظر : الرحلة ص ٣٦٧ .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وسوف أعرض في الصفحات التالية ترجمة للفصل الذي خصصه بركهارت لوصف المدينة المنورة كما رآها ، وتحليلاته للجوانب العمرانية والاقتصادية والثقافية ، وبعض الجوانب الاجتماعية ، حيث فصل الحديث عنها في فصل ثان لسكان المدينة ، أرجو أن أعرضه في بحث آخر مستقل إن شاء الله .

وقد اعتمدت في ترجمة النص على أستاذ متخصص باللغة الانجليزية في مصر ، لقيته قبل سنوات طويلة ، وطلبت منه ترجمة الكتاب ، فترجمه كاملاً ترجمة حرفية ، وأرسله بالبريد ، ولم يضع اسمه على الترجمة ، ولم أعد أذكر اسمه ، وأنا هنا أذكره بظهر الغيب بالفضل والشكر ، وأسأل الله أن يجزيه عني كل خير .

وقد اطلعت بعد ذلك على الترجمة التي قام بها كل من الدكتور عبد العزيز صالح الهلالي ، والدكتور عبد الله الشيخ ، وصدرت عن دار المعارف بمصر ، ووجدت فروقًا بسيطة في الصياغة ، ورأيت أن أثبت الترجمة التي اعتمدت عليها ، وتدخلت في صياغة بعض عباراتها ، مع تقديري للجهود الكبيرة التي بذلها المترجمان الكريمان في ترجمة الكتاب كله .

كما أذكر بالشكر والامتنان الأخ الدكتور أحمد حيدري ، أستاذ اللغة الإنجليزية بكلية التربية بفرع جامعة الملك عبد العزيز بالمدينة المنورة ، الذي تفضل بمراجعة الترجمة وتصويبها .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وصف المدينة

تقع المدينة على حافة الصحراء العربية الكبرى ، قرب سلسلة الجبال التي تقطع تلك البلاد من الشمال إلى الجنوب ، والتي تتصل بسلسلة جبال لبنان .

وقد ذكرتُ في كتاب «رحلة عبر الصحراء العربية» أن السلسلة الجبلية القائمة شرقي البحر الميت تمتد باتجاه العقبة ، وتستمر محاذية لشاطئ البحر الأحمر إلى اليمن ، وتقترب من البحر حينًا ، وتبتعد عنه حينًا آخر ، حيث يقوم بينهما سهل واسع يسميه العرب «تهامة» بينما يطلق هذا الاسم في اليمن على جزء من ذلك السهل .

وذكرت أيضًا أن انحدار هذه الجبال نحو الشرق أقل بكثير من انحدارها نحو الغرب ؛ لذلك فإن السهل الذي يقع شرقيها يرتفع بشكل واضح عن مستوى سطح البحر ، وقد لاحظت الأمر نفسه حينما ذهبت إلى الطائف واجتزت الجبل المسمى جبل كرا Kara وهو جزء من تلك السلسلة .

والأمر نفسه يلاحظ في المدينة ؛ فالجبل الذي هبطنا منه عند قدومنا يبدو من جهة الساحل عالي القمم ، وعندما وصلنا إلى السهل العلوي بجوار المدينة بدت تلك القمم نفسها على يسارنا وكأنها مجرد تلال لا يزيد ارتفاعها عن السهل الشرقي على ثلث ارتفاعها من الجهة الغربية حيث شاطئ البحر .

وتلامس امتدادات تلك الجبال أطراف المدينة من جهتها الشمالية ، بينما ينبسط الجانب الآخر ، وإن لم يكن مستويًا تمامًا .

ويبرز في السهل جزء من هذه السلسلة هو جبل أحد ، ويبعد عن المدينة مسير ساعة واحدة ، ويقع بين الشمال والشمال الشرقي للمدينة[1] .

وعلى مسافة ثمانية إلى عشر ساعات (٦ درجات شمال شرق ، وجنوب شرق ٦) توجد سلسلة من التلال قليلة الارتفاع تمتد شرقًا ، ويعبرها الطريق إلى نجد ، وتوجد تلال أخرى مماثلة على نفس المسافة في الجنوب الشرقي .

وفي جهة الجنوب تمتد المنطقة في سهل مستو تمامًا بامتداد البصر ، ويظهر على مسافة ساعة إلى ساعة ونصف جبل آخر يسمى جبل عير ، وهو جبل كجبل أحد يبرز من السلسلة الغربية داخل السهل .

(١) لم أحسب بدقة تذبذبات إبرة البوصلة في تلك الاتجاهات . (المؤلف) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

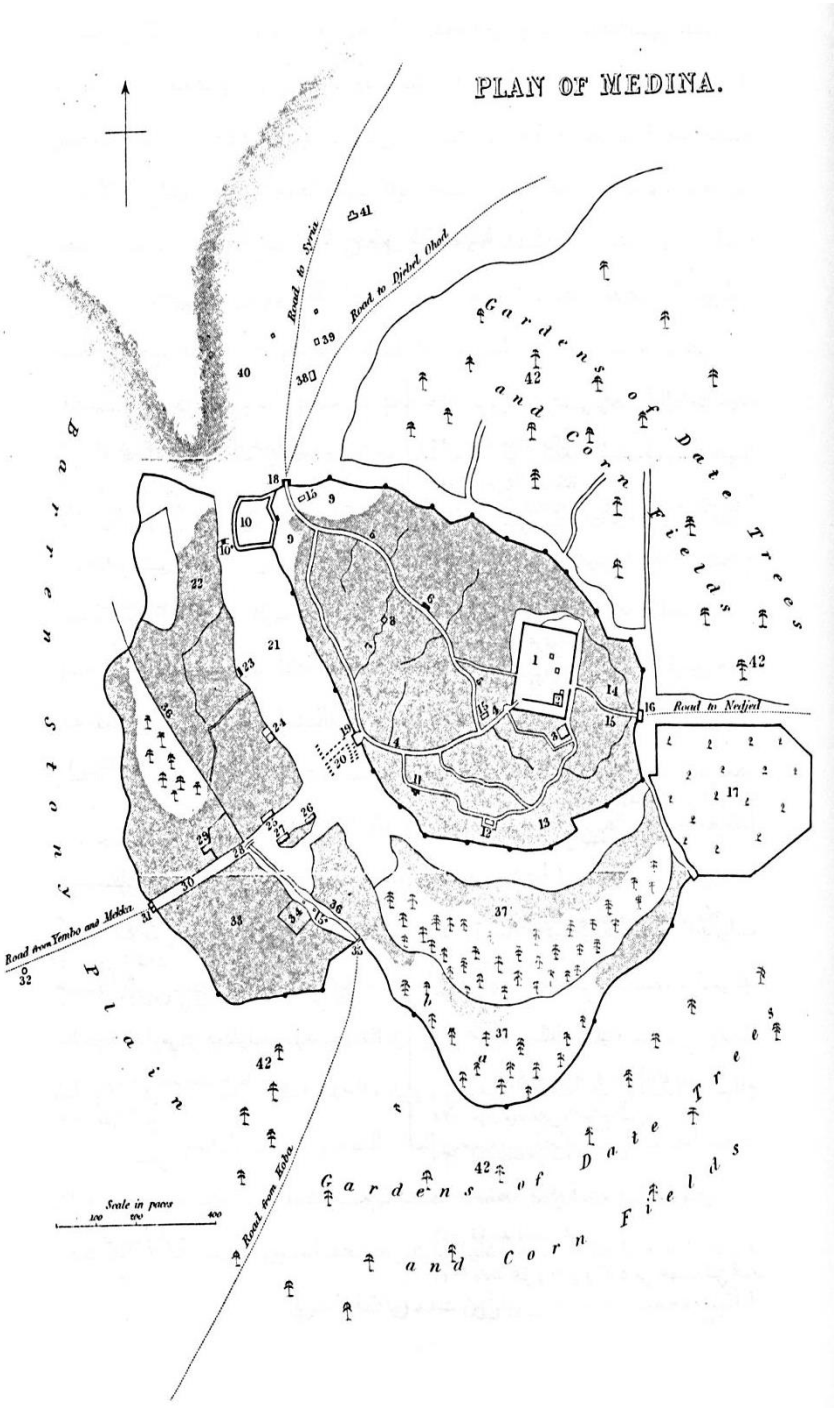

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

شرح خريطة المدينة

١- المسجد النبوي المسمى بالحرم
٢- قبر النبي محمد ﷺ المسمى في الحجرة
٣- بيت شيخ الحرم
٤- شارع السوق الرئيسي
٥- الشارع المسمى البلاط
٦- المدرسة الحميدية
٧- زقاق الطوال
٨- بيت القاضي
٩- مباني مهدمة
١٠- القلعة
١٠ب- بوابة صغيرة
١١- حمام عمومي
١٢- مستودع ذرة
١٣- حي بني حسين
١٤- حي الأغوات
١٥- السلالم المؤدية إلى القناة في أجزاء متفرقة من المدينة
١٥ب- آبار وهي التي ينبع منها الماء الذي يجري في القناة
١٦- البوابة التي تسمى باب الجمعة
١٧- مقبرة البقيع
١٨- الباب الشامي
١٩- الباب المصري
٢٠- حوانيت وأكواخ
٢١- المناخة .
٢٢- حي من الضواحي يسمى الواجهة فيه حقول ومنازل مهدمة
٢٣- بيت الحاكم التركي
٢٤- حوض يملأ بماء القناة
٢٥- أفضل مباني المدينة الخاصة حيث تسكن نساء الباشا
٢٦- مسجد عمر
٢٧- مسجد آخر
٢٨- جسر على مجرى السيل
٢٩- بيت الباشا وله حديقة كبيرة
٣٠- شارع العنبرية
٣١- باب العنبرية
٣٢- برج صغير مبني من جماجم الوهابيين الذين قتلوا حين استيلاء الأتراك على البلدة
٣٣- حي الساحة
٣٤- ساحة كبيرة تتوقف بها القوافل القادمة من مكة
٣٥- باب قباء
٣٦- مجرى السيل
٣٧- أحياء ذات سكان وحدائق
أ - حي الشهري , ب - حي الهندي
٣٨- خزان مياه خاص بالحجاج السوريين
٣٩- آبار مختلفة من المياه غير العذبة
٤٠- مخيم قافلة الحجاج السورية
٤١- قبة صغيرة تسمى القرين
٤٢- غابات نخيل وحدائق في ثلاث من الجهات التي تحوط المدينة

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد بُنيت المدينة نفسها في أخفض جزء من ذلك السهل ؛ لذا تستقبل السيول المنحدرة من الجبال الغربية ، كما تستقبلها من الجنوب والجنوب الشرقي ، وينتج عنها في موسم الأمطار عدد من برك المياه الراكدة ، التي تتبخر تدريجيًا ، و تنتشر الحدائق والأشجار والأسوار لتعوق هبوب الرياح ، ولتغطي المنطقة ، ولا يبقى مكشوفًا للناظر إلا جهة واحدة هي الجهة التي تمتد فيها الطريق إلى مكة ، حيث تستحيل الزراعة فيها ؛ لأن الأرض صخرية .

وتنقسم المدينة إلى : المدينة الداخلية ، والضواحي ، والمدينة الداخلية بيضاوية الشكل ، محيطها ألفان وثمانمائة خطوة تقريبًا ، وينتهي الشكل البيضاوي في نقطة بنيت فيها القلعة على مرتفع صخري صغير ، ويحوط المدينة الداخلية سور من الحجارة السميكة يتراوح ارتفاعه ما بين خمسة وثلاثين وأربعين قدمًا ، عليه قرابة ثلاثين برجًا ، ويحوطه خندق (من عمل الوهابيين) ردمت معظم أجزائه ، والسور سليم كله ، يشكل وسيلة دفاع لها فعالية كبيرة في جزيرة العرب ، حتى إن المدينة بسبب السور كانت تعتبر حصن الحجاز الرئيسي ، وقد بني السور عام ٣٦٠هـ ، وكانت المدينة قبل ذلك مفتوحة ومعرضة لغارات البدو المجاورين ، وأعيد بناؤه عدة مرات بعد ذلك ، كان آخرها عام ٩٠٠هـ ، وحفر الخندق حوله عام ٧٥١هـ .

ووفق ما أذكره (أسامي) فإن بناءه الحالي مع بواباته تم بأمر السلطان سليمان بن سليم في نهاية القرن السادس عشر الميلادي ، وللسور ثلاثة أبواب جميلة ، يمكن الدخول منها إلى المدينة ، وهي : الباب المصري في القسم الجنوبي (وهو ثاني بوابة عظيمة رأيتها في الشرق بعد باب الفتوح في القاهرة) ، والباب الشامي في القسم الشمالي ، وباب الجمعة في الجانب الشرقي ، وباب صغير آخر في القسم الجنوبي يسمى الباب الصغير ، أغلقه الوهابيون .

وقرب الباب الشامي بجانب القلعة توجد كوة تطل على موقع يروى أن مسجداً صغيراً كان مقاماً عليه يدعى مسجد السبق ؛ حيث كان المسلمون (أتباع محمد) المجاهدون يبدأون عنده رياضة الجري .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وأبنية المدينة جيدة ، شُيِّدت كلها بالحجارة ، ومنازلها مكونة من طابقين ، ولها سقوف مسطحة ، ولما كانت غير مطلية باللون الأبيض ، ومعظم حجارتها داكنة ، فإن الشوارع تبدو قاتمة ، وهي ضيقة في معظم أجزائها ، لا يزيد عرضها عن خطوتين أو ثلاثة ، وقد رصفت بعض الشوارع الرئيسية بحجارة كبيرة ، وهذا ترف نسبي يجده المسافر في الجزيرة العربية ...

والمدينة في جملتها واحدة من أجمل المدن المبنية التي رأيتها في الشرق ، تلي حلب مباشرة ، ولكنها تبدو حالياً وكأنها مهجورة ، تشكو بعض بيوتها من التلف ؛ فأصحابها الذين كانوا يجنون أرباحاً طائلة من حشود الزوار المتوالية طول أيام السنة تقلصت أرباحهم الآن (لقلة الزوار) فخفضوا النفقات الباهظة التي كانوا ينفقونها في تجويد البناء وفي صيانته ؛ لأنهم أدركوا أن إيجار تلك البيوت لا يعوض تلك النفقات ، وأصبح من المألوف أن ترى بيتاً متداعياً أو جداراً متهدماً في أي منطقة من المدينة .

فالمدينة حالياً تبدو بالمظهر الذي يبعث على الإحباط ، والذي تبدو فيه أغلب مدن الشرق العريقة التي لم يبق لها إلا ظلال باهتة من بهائها القديم .

ويقودك الشارع الرئيسي - وهو أوسع الشوارع - من الباب المصري (وسماه هنا باب القاهرة) إلى المسجد الكبير (المسجد النبوي) ، وتقع أغلب الحوانيت في هذا الشارع ، ويمتد شارع رئيسي آخر هو شارع البلاط من المسجد إلى الباب الشامي (وسماه هنا الباب السوري) ولكن أغلب المنازل فيه متداعية ، كما أن فيه بعض الحوانيت ، ولا توجد حوانيت أخرى في بقية أجزاء المدينة ، وبهذا تختلف المدينة عن مكة التي هي سوق واحدة متصلة ، وبصورة عامة تبدو مكة مدينة عربية السمات ، فيما تبدو المدينة سورية الملامح .

ولم يكن لدي الوقت الكافي لاكتشاف كل أحياء المدينة ، غير أني سأسجل الأسماء التي تطلق على تلك الأحياء .

الأحياء التي يحدها الشارعان الرئيسيان الممتدان من الباب المصري والباب الشامي إلى المسجد النبوي هي :

الساحة - كومة حشيفة - البلاط - زقاق الطوال وفيه بيت القاضي ، وبيوت واسعة لها حدائق جميلة - زقاق الدرة - زقاق البقر .

والأحياء التي تقع شمال شارع البلاط تمتد من المسجد إلى باب الجمعة هي : الحماضة - زقاق الحبس - زقاق عانقي - زقاق السمهودي - حارة الميضة - حارة الشرشورة - زقاق البدور ، حارة الأغوات ، حيث يعيش خدم المسجد (الخصيان) .

والأحياء التي تمد من باب الجمعة بمحاذاة القسم الجنوبي من البلدة حتى الباب المصري وشارع السوق الكبير هي : ذروان - الصالحية - زقاق ياهو - حارة أحمد حيدر ، حارة بني حسين حيث تسكن قبيلة بني حسين ، حارة سقيفة الرصاص - زقاق الزرندي - زقاق الكبريت - زقاق الحجامين - حارة سيدي مالك ، حيث كان بيت مالك بن أنس مؤسس المالكية - حارة القماشين .

وثمة عدد قليل جداً من الأبنية الكبيرة والأبنية العامة داخل محيط المدينة والمسجد الكبير الذي يضم قبر محمد ﷺ هو المعبد الوحيد ، ومدرسة عامة جميلة تسمى المدرسة الحميدية في شارع البلاط ، وواحدة أخرى مثلها قرب المسجد حيث يعيش شيخ الحرم .

وفي الربع الجنوبي للمدينة مخزن كبير للذرة ، له ساحة واسعة ، وبقربه حمام عام هو الحمام الوحيد في المدينة ، بناه محمد باشا نائب السلطان سليمان عام ٩٧٣هـ ، وهذه المباني هي كل ما رأيته من المباني العامة[١] .

وقد لاحظت أن مكة تفتقر أيضاً إلى الأبنية الأثرية الرائعة ، وبصورة عامة فإن سكان الجزيرة العربية لا يهتمون بفن العمارة ، حتى زعماؤهم يكتفون في بيوتهم الكبيرة بما هو ضروري ، والصروح المعمارية القائمة الآن في مكة والمدينة أنشأها سلاطين مصر أو القسطنطينية . إن التكلفة الكبيرة التي يتكبدها السادة المقيمون بعيداً عن المدينتين لكي يزوروهما أكبر من أن تجعل زيارتهم لهما استعراضية ، غير أن افتقار المدينة للمباني العامة يعوض عنه

(١) ذكر بعض مؤرخي المدينة أن فيها عدداً من الخانات ، ولكني لم أجد فيها شيئًا وأعتقد أنها غير موجودة الآن . (المؤلف) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وجود عدد من المنازل الخاصة الجميلة ، ولتلك المنازل حدائق صغيرة وآبار لريها ، وأحواض رخامية تملأ منها ، ويتحلق حولها أصحابها ، وقت الظهيرة في الصيف ، تظللهم عرائش عالية .

أما القلعة التي أشرت إليها سابقًا فتحيط بها أسوار منيعة وعدد من الأبراج العالية الصلدة ، وقد أردت الدخول إليها ومُنعت عند البوابة ، ومساحة القلعة تتيح لها أن تستوعب ما بين ستمائة وثمانمائة رجل ، وفيها عدد من الحجرات ذات الأقواس ، وبناؤها مقاوم للقنابل ، وإذا جهزت بحامية قوية وزودت بالمؤن لتكون منيعة ؛ تقاوم أي قوة في الجزيرة العربية ، فقد بنيت فوق الصخر ، ولا يمكن تقويضها ، غير أنها تبدو إزاء المدفعية الأوربية حصنًا لا قيمة له .

وفي القلعة بئر عميقة عذبة المياه ، وليس فوق أسوارها الآن سوى مدفعين أو ثلاثة ، كما أنه ليس في المدينة ما يصلح للدفاع عنها أكثر من اثني عشر مدفعًا .

وتمتد ضواحي[1] المدينة غربًا وجنوبًا ، وتغطي مساحة أوسع من مساحة المدينة نفسها ، وتفصل بين المدينة وضواحيها مساحة مفتوحة ، تضيق جنوبًا ، وتتسع غربًا عند الباب المصري ، حيث تُكَوِّن ساحة واسعة تسمى المناخة ، ويشير اسمها إلى أن القوافل تنزل فيها - أي يتم إناخة الإبل فيها - وهذا ما يحدث فعلاً ، حيث يزدحم المكان دائمًا بالإبل والبدو ، وقد أقيمت فيه عدة صفوف من الأكواخ الصغيرة والعرائش تباع فيها المؤن ، وأهمها : الذرة ، والتمر ، والخضروات ، والزبدة ، ويوجد عدد من أكواخ ((المقاهي)) التي تمتلئ طوال اليوم بالرواد ، وتواجه المناخة منطقة ليس لها أسوار ، وأما المناطق الخارجية في الغرب والجنوب فلها سور أقل ضخامة وقوة من سورة المدينة الداخلي ، وقد تهدمت بعض أجزائه ، وفي جانبه الجنوبي أبراج صغيرة ، وتوجد أربعة أبواب تصل بين خارج المدينة وداخلها ، وهي أبواب

(١) يقصد المؤلف بكلمة ضاحية هنا المنطقة السكنية الموجودة بين السورين الأول والثاني أو خارج السورين . (الباحث) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

خشبية صغيرة وضعيفة ، عدا الباب الذي يؤدي إلى الباب المصري فهو أكبرها وأفضلها بنيانًا .

ويتكون القسم الأكبر من الضواحي من ساحات واسعة ، بنيت حولها بيوت من دور واحد قليلة الارتفاع ، ويفصل بين الساحة والأخرى حدائق ومزارع وتسمى (حوش ، وجمعها حيشان) ، ويسكنها أبناء الطبقات الدنيا من أهل المدينة والبدو الذين استقروا فيها ، إضافة إلى العمال الذين يشتغلون في المزارع ، ويسكن في كل حوش ما بين ثلاثين إلى أربعين عائلة ، لذا تشكل الساحات قرى صغيرة منفصلة ، تشتبك حينما لا توجد حكومة مستقرة في خصومات مستحكمة ، وتربى الماشية وسط الساحة ، حيث توجد في كل ساحة بئر كبيرة ، وتغلق البوابة ، وهي المدخل الوحيد في الليل عادة .

وعلى الجانبين : الجنوبي والشمالي الغربي من المدينة تتكون ضواح قريبة من السور فيها ساحات تشبه الساحات التي وصفتها آنفًا ، وتمتد بينها وحولها بساتين ، وتتكون التجمعات السكنية أمام الباب المصري والمناخة من شوارع منتظمة جيدة الرصف ، فيها بيوت تماثل البيوت الموجودة داخل المدينة ، ويخترق الشارع المسمى (العنبرية) هذا الجزء من التجمعات السكنية ، وترتفع على جانبيه مبان جديدة يقيم طوسون باشا في إحداها ، وبجانبه أفضل بيت في المدينة يملكه التاجر الثري عبد الشكور ، تنزل والدة الباشا (طوسوس) زوجة محمد علي التي وصلت المدينة في زيارة خاصة .

وأما الأحياء الرئيسة في التجمعات السكنية فهي (حارة العنبرية) حارة الواجه ، حارة الصاح ، حارة أبو عيسى ، حارة مصر ، حارة الطيار ، حارة نفيسة ، حارة الحامدي ، حارة الشهرية ، حارة الخيبرية ، حارة جعفر .

ويملك كثير من سكان المدينة بيوتًا صيفية في البساتين ، حيث يمضون فيها شهرًا خلال موسم جمع التمر ، وكل بستان محاط بسور من الطين ، وتتخللها دروب فرعية ضيقة لا تتسع لأكثر من جمل محمَّل يمر في كل اتجاه .

وفي المناخة مسجدان ، الأول مسجد علي ابن عم النبي ﷺ ، ويقال إنه مبني من عهد النبي محمد ﷺ ، ولكن المبنى كما يبدو أعيد تشييده عام ٨٧٦هـ ، ويقال إن محمداً ﷺ كثيراً ما صلى هنا ، ولراحة سكان الضواحي

البعيدين عن المسجد الكبير (النبوي) تقام فيه - مثل المسجد الكبير - خطبة وصلاة الجمعة ، والمسجد الثاني يسمى مسجد عمر ، ألحقت به مدرسة عامة ، ويستخدم الآن مستودعاً ومقراً لكثير من الجنود .

ويُسمّي مؤرخ مكة كلاً من هذين المسجدين مسجد الفتح ، ويسمي أحدهما الأعلى ؛ لأنه في أعلى بقعة من المدينة ، وكان بقربهما في القرن السادس عشر مسجدان هما مسجد أبي بكر ، ومسجد ذباب .

وكانت المناخة تسمى آنئذ جبل صولة والعرب يطلقون كلمة جبل على أية بقعة ترتفع عن الأرض ولو شيئًا قليلاً ، وكان في المدينة وضواحيها في عصر الكتاب (مؤرخ مكة) خمسة عشر مسجداً آخر ، كلها مهدمة الآن ، وقد ذكر أسماء وتواريخ سبعة وثلاثين مسجداً شيدت في عصور سابقة ، ولا وجود لها الآن .

وقيل لي : إن البيت الذي كان يعيش فيه محمد ﷺ ما زال موجوداً الآن بحي العنبرية ، لكن الكثيرين يشكون في هذا القول ، ولا أحد يزوره باعتباره مكاناً مقدساً .

وكما هو الحال في مكة لا توجد هنا مبان أثرية ، وتسهم الأمطار الشتوية والجو النتروجيني الرطب أثناء موسم الأمطار والحرارة الشديدة التي تليه في تدمير المباني ، وبما أن الإسمنت المستخدم في البناء ضعيف جداً فإن الأحجار تتفتت ، والجدران تتهدم .

وتروي قناة بديعة[1] تمتد تحت الأرض المدينة بالمياه العذبة ، التي تُجلب - على نفقة السلطان سليمان - من قرية قباء ، وتبعد مسيرة ثلاثة أرباع الساعة جنوباً ، وماؤها وفير ، وقد بنيت أدراج تهبط إلى مجرى القناة في عدة مناطق في المدينة كي يتزود السكان بالماء ، ومثل أهل مكة لا يدفعون مقابل ذلك شيئًا ، وقد شيد بالحجارة خزان كبير في المناخة على مستوى القناة على عمق يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين قدماً تحت الأرض ، وتنبع مياه القناة من

(١) يقصد العين الزرقاء ، التي أنشاها مروان بن الحكم بأمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان . (الباحث) .

عدة عيون في قباء ، ورغم أنها ليست سيئة المذاق فإنها غير جيدة ، ولو تركنا هذه الماء في وعاء نصف ساعة ، فسنجد طبقة من النتروجين البيضاء تغطي جوانبه ، ويشكو الأجانب الذين لم يتعودوا على هذا النوع من الماء منذ وقت مبكر من أنه يسبب لهم عسر الهضم ، وتكون المياه فاترة عند منبعها بقباء ، وتحافظ إلى حد ما على حرارتها في المدينة .

وبالإضافة إليها توجد عدة آبار متوزعة في أنحاء المدينة ، ويوجد في كل بستان بئر يرويه ، وتظهر المياه عندما نحفر على عمق خمسة وعشرين أو ثلاثين قدمًا ، وبعض الآبار عذبة المياه صالحة للشرب ، وبعضها مالح إلى درجة كبيرة .

وتتناسب خصوبة الحقول والبساتين مع جودة مياه الآبار التي تسقيها ، فالتي تسقى بماء مالح قليلة العطاء ، لا يتناسب محصولها مع الجهد الذي يبذله أصحابها عدا أشجار النخيل التي تثمر بقدر واحد في جميع الأماكن .

إضافة إلى مياه الآبار والقناة المائية المبنية تحصل المدينة على قدر وافر من مياه وادي بطحان في فصل الشتاء ، الذي يتدفق من الجنوب إلى الشمال مرورًا بالضواحي ، ثم يغيب في وادٍ حجري في الشمال الغربي[1] ، وتكفي الأمطار الغزيرة في ليلة واحدة لملء مجرى هذا الوادي ، ورغم أنه يتناقص بالسرعة التي يتكون فيها ، فقد وجدت في المنطقة التي تسمى العنبرية جسرًا حجريًا مقوسًا في حالة جيدة ، مبنيًا فوق مجرى السيل ، ويبلغ عرضه في ذلك المكان حوالي أربعين قدمًا .

والأراضي المنخفضة كثيرًا ما تبقى المياه فيها حتى قدوم أشهر الصيف ، وتسهم هذه البرك والتجمعات المائية في شهرة المنطقة بوفرة المياه ، حيث تتفوق في هذا الصدد على أية بقعة أخرى شمالي الجزيرة العربية ، ونتيجة لذلك صارت المنطقة مستقرًا هامًا للسكان العرب قبل أن تصبح مدينة مقدسة

(١) تغيب جميع السيول في منطقة منخفضة عند الجبال الغربية تسمى الغابة , وتسمى أيضًا زغابة . (المؤلف) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بزمن طويل ؛ حيث صارت مقدسة بسبب هجرة الرسول ﷺ وإقامته ووفاته فيها ، وسميت لذلك المدينة ، أو مدينة الرسول ﷺ .

وينتج عن توافر المياه في المدينة قلة استخدام خزانات المياه فيها ، وأظن أنه ليس فيها أكثر من بيتين أو ثلاثة تحوي خزانات مياه ، رغم أنه من المحبب كثيراً جمع مياه الأمطار للشرب ، فهذه تفضل مياه قباء النتروجينية ، وتتحول المنطقة ما بين المدينة والضواحي بأكملها إلى بحيرة أثناء هطول الأمطار الغزيرة ، وتغطى المنطقة الجنوبية والجنوبية الشرقية بطبقة من الماء ، ويرحب السكان بهذه الفيضانات ، ويعدونها بشيراً صادقًا بالخصوبة والنماء ، فهي لا تقتصر على ري نخيلهم ، بل تتسبب في انتشار الخضرة في السهول البعيدة التي يسكنها البدو الذين تعتمد عليهم المدينة في توفير حاجتها من الماشية والسمن .

والمدينة جوهرة غالية ، مكانتها تماثل مكة ، بل وتتقدمها عند كثير من المؤلفين بسبب المسجد الكبير الذي يضم قبر محمد ﷺ ، ويطلق عليه اسم الحرم ، مثلما يطلق على المسجد الكبير في مكة ، وذلك بسبب حرمته ، وهذا الاسم يتداوله سكان المدينة ، بينما يسميه المسلمون في البلاد الأخرى مسجد النبي ، الذي أسسه ، وتُظهر الخريطة أن موقع هذا المسجد أقرب إلى الأطراف الشرقية للمدينة ، وليس في منتصفها كما يذكر المؤرخون والجغرافيون العرب القدماء ، ومساحته اصغر بكثير من مسجد مكة ، يبلغ طوله مائة وخمسة وستين خطوة ، وعرضه مائة وثلاثين خطوة ، لكنه يشبهه في نمط البناء ، حيث يتكون من ساحة مفتوحة تحوطها من جميع الجوانب أروقة مسقوفة ذات أعمدة ، ووسط المسجد يقوم مبنى صغير ، والأعمدة أقل انتظاماً من تلك الموجودة بمسجد مكة ، حيث تصطف على مسافات متساوية في جميع الاتجاهات ، ويتألف الرواق الجنوبي من عشرة صفوف متوالية من الأعمدة ، بينما يوجد في الجانب الغربي أربعة صفوف ، وفي الجانب الشمالي وجزء من الجانب الشرقي ثلاثة صفوف فقط ، والأعمدة نفسها غير متماثلة الحجم ؛ فأعمدة القسم الجنوبي حيث يوجد قبر النبي ﷺ - والذي يعد من أكثر

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الأماكن قداسة - أكبر حجماً من الأعمدة الأخرى في المسجد ، ويبلغ قطر الواحد منها قدمين ونصف تقريباً ، وليس في أعلاه أية حلية ، وتيجان الأعمدة تشبه التي في مسجد مكة من حيث التنوع والذوق البسيط (غير السليم) فلا تجد تاجين متماثلين ، وجميع الأعمدة منحوتة من الحجر ، ومطلية باللون الأبيض ، لذا يصعب معرفة نوع الحجر الذي صنعت منه . وقد زخرفت برسومات لأزهار وأوراق أشجار متشابكة (زخرفة الأرابسك) بأسلوب خشن مبهرج بارتفاع ستة أقدام ، وربما تكون الزخرفة تعويضاً عن عدم وجود حليات مثلثة في أعلاها ، وكسيت الأعمدة الأقرب إلى الجزء الجنوبي المسمى بالروضة برخام مصقول لامع أخضر لازوردي إلى منتصفها ، وزخرفت برسوم أوراق شجر متشابكة (زخرفة الأرابسك) متعددة الألوان ، ويبدو أن الرخام الذي كسيت به هذه الأعمدة مصنوع في فينيسيا ، وهو النوع الذي تكسى به المرافئ في ألمانيا وسويسرا .

ويتكون سقف رواق الأعمدة من عدة قباب صغيرة ، طلي سطحها الخارجي باللون الأبيض - مثل التي في مكة - وجدرانها الداخلية بالأبيض أيضاً - عدا جزء من الركن الجنوبي والجنوبي الشرقي ، حيث غلفت بكتل من الرخام إلى ارتفاع يقارب قمتها ، وعلى امتداد الجدار صفوف متوالية من النقوش المذهبة فوق الرخام الأبيض ، لها بريق مؤثر ، ويغطي أرضية الرواق في جهاته الغربية والشرقية وبعض الشمالية رصيف خشن ، أما الجزء الباقي من الجهة الشمالية فغير مرصوف ، بل مغطى بالرمال ، وكذلك الأمر في الساحة المفتوحة كلها ، أما الجزء الجنوبي فقد أسرف مجدد المسجد في زخرفته - وكما أسلفت - حيث رصفت الأرضية على امتداد الرواق بالرخام الرائع ، وكسيت الأرضية القريبة من قبر محمد ﷺ بفسيفساء صنعت بإتقان متناه ، وهي أفضل فسيفساء يراه المرء في الشرق ، ويدخل الضوء من نوافذ كبيرة عالية في الجدار الجنوبي ، لها ألواح زجاجية واسعة (لم أر مثلها في الحجاز)

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وبعض الألواح الزجاجية ملونة وجميلة[1] ، تنتشر على الجدران الأخرى نوافذ أصغر حجماً ، لكنها أكبر من الألواح الزجاجية .

ويوجد القبر الشهير قرب الركن الجنوبي الشرقي ، وبينه وبين جدار المسجد مسافة واضحة ؛ حيث يفصله عن الجدار الجنوبي خمسة وعشرون قدماً ، وعن الجدار الشرقي خمسة عشر قدماً ، ويمنع السياج المحيط بالمقصورة الزوار من أن يقتربوا من القبر أكثر من اللازم ، وهو على شكل مربع غير منتظم ، طول ضلعه حوالي عشرين خطوة ، وتقع المقصورة وسط الرواق ، وتتضمن عدداً من أعمدته ، وقد صنع السياج من الحديد ، وطلي باللون الأخضر ، ويبلغ ارتفاعه حوالي ثلثي ارتفاع الأعمدة ، ويملأ هذا السياج المسافة بين الأعمدة ، ولكنه يترك الثلث العلوي فارغًا ومفتوحاً بالكامل .

والسياج متقن الصنع ، يشبه صناعة الحلي ، تتشابك فيه نقوش مفرغة من البرونز الأصفر يحسبها العامة من الذهب ، وتكوينها متشابك وضيق جداً بحيث لا يمكن رؤية ما بالداخل إلا من خلال فتحات عدة ، مساحة الواحدة ستة بوصات مربعة تقريباً ، تتوزع على الجوانب الأربعة من السياج ، وترتفع عن الأرض حوالي خمسة أقدام .

وفي الجانب الجنوبي توجد فتحتان رئيسيتان يطل منهما الزوار ، وقد طلي السياج فوقهما بطبقة رقيقة من الفضة ، ونقش حولهما عبارة لا إله إلا الله الحق المبين ، وفي السياج أربعة أبواب تفضي إلى الداخل (داخل المقصورة) ثلاثة منها مغلقة دائماً ، وواحد يفتح كل صباح ومساء ليدخل الخدم الخصيان الذين ينظفون الأرضية ، ويوقدون المصابيح ، ولكل باب اسم خاص به ، وهي : باب النبي ، باب إبراهيم ، باب التوبة ، باب بستان فاطمة ، ودخول المقصورة شرف عظيم يمنح مجاناً لأصحاب الرتب العالية ؛ كالباشوات ورؤساء قوافل الحجاج ، بينما يشتريه بقية الناس من الخصيان بمبلغ يتراوح بين اثني عشر وخمسة عشر دولاراً ، توزع عليهم على شكل هدايا ، ولكن قلما ينتفع الزوار بهذا الامتياز ؛ لأنهم يعرفون أنهم عندما يدخلون المقصورة لا يرون أكثر

(١) يبدو أن فن تلوين الزجاج لم يغب عن الشرق أبدًا . (المؤلف) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

مما يرونه من خلال شبابيكها المفتوحة دائماً ، وبالنسبة لي لم أرغب في لفت الانتباه مقابل إشباع فضولي .

ويبدو من الداخل ستار يحيط بالمساحة الداخلية ، ويكاد يستوعبها بالكامل ، فليس بينه وبين السياج إلا ممر ضيق لا يزيد عرضه عن خطوات قليلة ، ويرتفع الستار مثل ارتفاع السياج ، غير أنني لم أتبين عندما نظرت من تحت هل الستار مفتوح من أعلى - مثل السياج - أم لا .

وحسبما يؤكد الخصيان فثمة غطاء من نوعية الستار ذاته مصنوع من حرير موشى ثمين متعدد الألوان ، وفيه زخارف من فضة على شكل أزهار وأوراق أشجار متشابكة ، وشريط من حروف ذهبية يمتد عبر نصف الستار مماثل للشريط الموجود على غطاء الكعبة ، ولا يسمح لأي شخص بالدخول إلى الحجرة الشريفة بعد هذا الستار عدا كبار الخصيان الذين يعتنون به ويضعون الستار الجديد المرسل من القسطنطينية في الليل ، ويبدَّل الستار كلما تلف أو ارتقى العرش سلطان جديد ، ويُرسل الستار القديم إلى القسطنطينية حيث تغطى به قبور السلاطين والأمراء .

وبناء على ما ذكر مؤرخ المدينة[١] فإن الستار يغطي مبنى مربعًا من الحجارة السوداء ، له عمودان من الجر ، فيه قبر محمد ﷺ وأقدم صاحبين له اللذين خلفاه مباشرة وهما أبو بكر وعمر ، وكما سمعت فقد غطي القران أيضاً بأقمشة ثمينة تشبه الغطاء الموضوع على شكل منصة فوق مقام إبراهيم بمسجد مكة ، ويقال إن ترتيب القبور الثلاثة كما يلي :

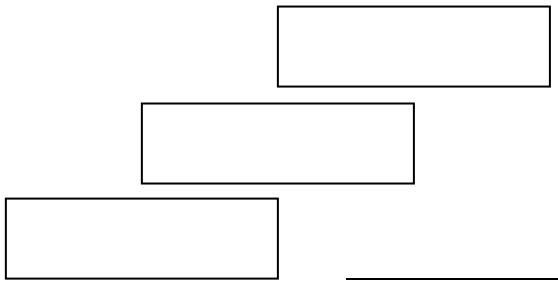

(١) يقصد السمهودي . (الباحث)

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وقد انتشرت في أوربا في وقت ما قصص تقول إن قبر محمد ﷺ معلق في الهواء ، هذه القصص غير معروفة في الحجاز ، ولم أسمع شيئًا منها قط في الشرق ، وقد نَشَر بعض من زوار المدينة قصصًا مليئة بالمبالغات عن أعاجيب هذا القبر وثرائه ؛ ليضفوا على أنفسهم أهمية أكبر بروايات أسطورية عن أعاجيب رأوها .

وكانت كنوز الحجاز تُحفظ سابقًا حول تلك القبور ، تعلق بحبال حريرية ممتدة داخل المبنى ، أو توضع في صناديق على الأرض ، ومن تلك الكنوز نسخة من القرآن الكريم مكتوبة بالخط الكوفي ، ومحفوظة باعتبارها أثرًا قيمًا يرجع إلى عهد عثمان بن عفان ، ويقال : إن هذه النسخة ما زالت موجودة في المدينة ، ولكني أشك في أن تكون قد نجت من الحريق الهائل الذي دمر المسجد ، وقد ذكرت في تأريخي للوهابيين[1] أن زعماء المدينة استولوا أثناء الحصار على قدر وافر من تلك الكنوز ، وزعموا أنهم وزعوها على فقراء المدينة ، وخاصة الأواني الذهبية ، غير أنهم اقتسموها فيما بينهم في نهاية المطاف ، وعندما استولى سعود على المدينة[2] دخل الحجرة إلى ما وراء الستار واستولى على كل ثمين فيها ، وباع بعضه لشريف مكة ، وحمل البقية إلى الدرعية ، ومن بين ما حمله وأغلاه نجمة من الماس واللؤلؤ كانت معلقة فوق قبر النبي ، وكثيراً ما يتحدث العرب عن هذه النجمة ، ويسمونها الكوكب الدري .

وفي هذا المكان (الحجرة النبوية) تودع أوعية مليئة بالجواهر والأقراط والأساور والقلادات وغير ذلك من الحلي ترسل من جميع أنحاء الإمبراطورية (العثمانية) غير أن القسم الأكبر منها يجلبه كبار الحجاج حينما يزورون

(١) ترجم الدكتور عبد الله العثيمين الكتاب بعنوان : مواد لتاريخ الوهابيين ونشرته مكتبة العبيكان . (الباحث) .

(٢) يقصد الأمير عبد العزيز بن سعود ، وذلك سنة ١٢٢٠هـ ، ورواية أخذه مقتنيات الحجرة النبوية غير صحيحة . انظر ما كتبه المؤرخ الذي عاصر تلك الأحداث ؛ عبد الرحمن الجبرتي في كتابه : تاريخ عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، دار الجيل ، بيروت ٩١/٣ ، ١١٦-١١٧ . (الباحث) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المدينة ، ولا شك أن هذه النفائس في مجموعها لها قيمة ضخمة ، لكنها لا تبلغ أن توصف بأنها (لا تقدر بثمن) كما يتخيل بعضهم ، ويقدر الشريف غالب قيمة ما اشتراه من النفائس بمائة ألف دولار ، ويقال إن زعماء المدينة حملوا ما يقارب مائة وزن من الأوقية الذهبية تبلغ قيمتها أربعين أو خمسين ألف دولار في الحد الأقصى ، أما ما أخذه سعود فيقال إنه يتكون من اللآلئ والمرجان ، ولا تتجاوز قيمته قيمة الجزء الذي اشتراه غالب ، لذا فإن القيمة الإجمالية لكل ما كان في الحجرة من نفائس تقدر بثلاثمائة ألف دولار تقريباً ، ويبدو أنه لم تودع أموال (نقدية) هنا على الإطلاق ، وأن جميع الأموال التي كانت تهدى للمسجد كانت توزع فوراً على خدم المسجد والعاملين فيه ، ولكن قد نصدق أن تبرعات المؤمنين (الزوار) التي تراكمت هناك لأجيال كانت أكبر بكثير مما سبق ذكره ، ومن المستغرب ألا يكون حكام المدينة الذين تمتعوا باستقلال ذاتي قد أخذوا منه شيئًا خلال العصور المتوالية ، وكذلك حراس القبر على نحو ما حدث في مكة حينما قام بعض (علمائها) بالاستيلاء على عدد من المصابيح الذهبية وحملوها داخل أكمامهم الواسعة خارج المسجد وفق ما ذكر المؤرخ قطب الدين ، وعندما قدم طوسون باشا إلى المدينة بحث عن الأواني الذهبية التي باعها زعماء المدينة ، وعثر على بعضها واشتراها بعشرة آلاف دولار تقريباً وأعادها إلى مكانها الأصلي ، وقد كسيت الأرض فيما بين السياج والستائر بقطع من الفسيفساء الرخامية الملونة ، وتتدلى المصابيح الزجاجية حول الستائر وتوقد في المساء لتنير طوال الليل .

وتغطي قبة عالية متقنة المساحة المسيجة والمسماة (الحجرة) كلها ، وهي أعلى بقليل من قباب سقف الأروقة ، ترى من مسافة بعيدة خارج المدينة ، ويردد الزوار أدعية خاصة عند رؤيتها ، وهي مكسوة من الخارج بطبقة من الرصاص ، وتعلوها كرة وهلال كبيران[1] يتلألئان بالذهب ، ويؤكد بعضهم أنهما مصوغتان من الذهب الخالص ، وهذا أمر لا يصدق إذا وضعنا

(١) طليت الكرة بالذهب ، وأرسل الهلال من القسطنطينية بأمر السلطان سليمان بن سليم ، وقد جدد المسجد وبنيت القبة على النحو الموجود حاليًا بأمر السلطان قايتباي سلطان مصر ما بين عامي ٨٨١-٨٩٢هـ . (المؤلف) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

في اعتبارنا أن أغنى السلاطين وأقواهم لم يرغبوا في تـزيين أي مـن مسـجد مكة والمدينة بروعة وبهاء ، وقد حاول الوهابيون الذين أغراهم منظر الكرة أن يهدموا القبة وينزلوا الكرة والهلال تبعًا لتقاليدهم في هدم القبـاب التـي تعلـو قبور أي من البشر الميتين ، وهم يعدون محمداً ﷺ مثلهم ، ولكن صلابة البناء وطبقة الرصاص التي تكسوها حال دون ذلك ، وانزلق اثنان من المحاولين مـن السقف الأملس وسقطوا على الأرض (ميتين) فتخلوا عن الهدم ، وهذه حالـة تعد معجزة لحماية ضريح رسول الله ﷺ .

وداخل السياج الذي ينحرف عن الشكل المربع قليلاً قرب السـتائر ولكـن بشكل منفصل عنها ، يوجد قبر ستنا فاطمـة ابنـة محمـد ﷺ وزوجـة علـي ، ويتكون من منصة على شكل مكعب مغطاة بقماش ثمين أسود غير مزخـرف ، وثمة خلاف حول وجود جثمانها في هذا المكان أو في البقيع خارج المدينـة ، وإلى أن يحسم هذا الخـلاف مـا زال المرشـدون يأخـذون الـزوار إلـى كـلا الموقعين ، ويستوفون منهم أجرة مضاعفة .

وعلى الحائط الشرقي للمسجد مقابل القبـر تقريبًـا شـباك صـغير فـي المكان الذي يروى أن كبير الملائكة جبريل هبط فيه من السماء مراراً بالوحي على محمد ﷺ ، ويسمى هذا المكان مهبط جبريل .

وثمة حديث مأثور يقرر أنه عندما ينفخ في الصـور يهـبط عيسـى المسـيح مـن السماء إلى الأرض ويخبر بقدوم يوم القيامة ، ثم يمـوت ويـدفن فـي الحجـرة بجوار محمد ﷺ ، وحينما يُبعث الموتى من القبور يبعثان معًا ويصعدان إلى السـماء ، ويأمر الله عيسى - حينما ينزل - أن يفصل المؤمنين عن الكافرين ، وبناء علـى هذا الحديث حددت بقعة من خلال ستائر الحجرة سيكون فيها قبر عيسى عليه السلام .

وشمالي المحيط المُسَيَّج قرب قبر فاطمة توجد منصة ترتفع عـن الأرض حوالي أربعة أقدام ، وضلعها خمس عشرة خطـوة تسـمى (الصُّـفَّة) يجلـس عليها سدنة المسجد من الخصـيان ، وتعقـد فيهـا مجـالس علمـاء المدينـة واجتماعاتهم الرئيسية .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويمتد حاجز خشبي يرتفع ثمانية أقدام تقريباً غني برسومات الأشجار المتشابكة (الأرابيسك) من الجانب الغربي للحجرة ، وعلى طول جدار المسجد على مسافة خمسة وعشرين قدماً منه ، وينتهي قرب باب السلام ، أي أنه يبدأ من الحجرة ، ويمتد بعرض المسجد تقريباً ، ولهذا الحاجز الخشبي عدة أبواب خشبية ، وقد أقيم ليفصل منطقة الروضة عن الممر العادي للزوار الذي يقودهم من باب السلام إلى الحجرة ، وبعد هذا الجزء من الرواق الجنوبي شمالي الحاجز الخشبي ، ثاني مكان مقدس بعد القبر ، ويسمى الروضة ، أي حديقة المؤمنين ، وسماه محمد ﷺ بذلك حين قال : (ما بين قبري ومنبري روضة من رياض الجنة)[1] .

وقريباً من هذا الحاجز وفي منتصف المسافة بين الحجرة والحائط الغربي للمسجد يقوم المنبر ، والروضة هي المسافة ما بين المنبر والحجرة فقط ، وإن كانت تطلق أحياناً على الرواق الجنوبي كله ، لذلك زينت الأعمدة الموجودة فيها إلى ارتفاع خمسة أو ستة أقدام برسومات الأشجار المتشابكة و (الأرابسك) لتساعد الخيال على عقد التشابه بينها وبين جنة عدن .

ويوجد محرابان يحددان وجهة الناس في الصلاة نحو الكعبة بدقة ، وهما على جانبي المنبر ، وهذه الثلاثة ؛ المحرابان والمنبر من روائع الصناعة اليدوية الفائقة الدقة للفسيفساء ، أحدهما هدية من السلطان قايتباي من مصر ، والآخر هدية من السلطان سليمان بن سليم من القسطنطينية ، ويغطي أرضية الروضة سجاد بديع أُرسل من القسطنطينية ، وكما هو الحال في مكة يُعد هذا السجاد أثمن ما رأيته في المسجد ، وتبلغ قيمته ألف جنيه ، أما القسم العلوي من الرواق فقد غطي بالحصير .

ويحتشد المصلون فوق سجاد الروضة ، وهو الموقع المفضل عندهم ، ولا توجد قواعد رسمية لأماكن الجلوس ، ويمكن للمرء أن يجلس حيثما يشاء ، ولكن من المتعارف عليه أن الصف الأول الأقرب من الحاجز ، خاصة الأماكن القريبة من الإمام تخصص لعلية القوم ، ولا يقحم نفسه فيها من ليس منهم .

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري في كتاب الصلاة، باب فضل ما بين القبر والمنبر ، رقم ١١٩٥ بلفظ : ((ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة)) . (الباحث) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وللروضة مدخل قريب من باب السلام بديع المظهر ، تتلألأ الألوان على جوانبه ، والأعمدة مطلية بطبقة زجاجية والسجاد جميل ، والنقوش على الحائط موشاة بماء الذهب ، وسياج الحجرة يتلألأ من الخلف ، كل هذا يخطف النظر للوهلة الأولى ، لكن بعد فترة وجيزة يتضح أن هذا ما هو إلا زينة مبهرجة ليس فيها ثراء حقيقي ، وحين نتذكر أن هذه البقعة واحدة من أقدس الأماكن في العالم الإسلامي تشتهر بروعتها وفخامتها وزينتها الغالية ، وأن أتباع هذا الدين تبرعوا بخشوع لتزيينها ، إذا تذكرنا ذلك ، سيدهشنا المظهر المتواضع للمكان ، ولا وجه للمقارنة بينه وبين ضريح أقل القديسين الكاثوليك في أوربا ، وهذا يدل على أن المسلم لم يتساو قط مع الكاثوليكي في التبرعات الورعة (التي يكون باعثها مشاعر دينية)[1] .

فضلاً عن أمور أخرى كثيرة تبعث على الاعتقاد بأن المسلمين مهما تعمقت معتقداتهم الغيبية ، واشتد تعصبهم فإنهم لا يقدمون تضحيات مالية لمؤسساتهم الدينية تماثل ما يقدمه المسيحيون الكاثوليك أو حتى البروتستانت لمؤسساتهم .

وشعائر زيارة المسجد النبوي هي كما يلي :

على الحاج (الزائر) أن يُطَهِّر نفسه قبل دخول البلدة بالاغتسال الكامل ، وإذا استطاع أن يعطر نفسه بعطور غالية ، وعندما يرى القبة التي تعلو قبر النبي ﷺ يرفع صوته ببعض الأدعية ، وعندما يعتزم زيارة المسجد يقوده الدليل ويسمى المُزَوِّر من البوابة المسماة باب السلام ، ويجتاز العتبة بقدمه اليمنى أولاً ، وهذا عرف مطبق في دخول جميع المساجد ، ويؤكَّد عليه بشكل خاص هنا ، ويتقدم الحاج إلى الروضة وهو يتلو بعض الأدعية ويصلي ركعتين (أربع سجدات) يقرأ فيهما سورتين قصيرتين هما (قل يا أيها الكافرون) سورة رقم ١٠٩ ، والسورة رقم ١١٢ (قل هو الله أحد) ، ويمر بعدها من أحد

(١) طبيعي أن يكون هذا فهمه ومقارنته ؛ لأن المسلم لا يهتم بالمظاهر المادية ، ولو قرأ في التاريخ عن تبرعات المسلمين وما تُوَجَّه إليه لما اتهمهم بالتقصير ؛ فالمسلمون يقدمون بسخاء للمصارف التي حددها الله سبحانه وتعالى فيما توجه إليه أموال الزكاة والصدقات : الجهاد في سبيل الله ، والفقراء ، والمساكين ، وابن السبيل ، والغارم ، وهذه أنفع للمجتمع من زخرفة الأبنية بالإسراف الذي يشير إليه . (الباحث) .

الأبواب الصغيرة لحاجز الروضة ، ويسير بتمهل نحو سياج الحجرة ، حيث يأخذ موضعه قبالة الشباك الغربي للجانب الجنوبي من الحجرة ، ويوجه دعواته وتوسلاته[١] إلى محمد ﷺ ويداه مرفوعتان قليلاً (في وضع الدعاء المعتاد) ويقول : (سلام عليك يا محمد ، سلام عليك يا رسول الله) ويذكر قرابة عشرين من ألقابه الرفيعة المختلفة ، ويسبق كل لقب عبارة : سلام عليك يا ... بعد ذلك يستنجد بشفاعته في السماء ويذكر بوضوح : أسماء كل أقاربه وأصدقائه الذين يريد أن يشركهم في دعائه ؛ لذلك لا تخلو رسالة ترد من خارج المدينة إلى أحد سكانها من طلب ملح بأن يذكر اسمه في الدعاء عند قبر النبي ﷺ .

وإذا كان الحاج يؤدي حجه نيابة عن شخص آخر فعليه أن يذكر اسم من ينوب عنه .

ويذكر الناس ضمن دعواتهم عبارة يرددونها أيضًا في زيارتهم لجميع الأماكن المقدسة الأخرى في البلدة - بدت لي أنها لا تلهم الزائر أية مشاعر إنسانية أو خيرة - بين التوسلات التي يطلبونها من الله يطلبون ما يلي : (أهلك أعداءنا واجعل مثواهم عذاب جهنم) .

ويستحسن للزائر أن يقف دقائق معدودة بعد تلك الدعوات مسنداً رأسه بإحكام إلى الشباك في تبتل صامت ، ثم يرجع للخلف ويصلي ركعتين (أربع سجدات) في الرواق المجاور قبالة السياج ، ثم يتقدم إلى الشباك الثاني الذي يقال إنه يواجه قبر أبي بكر ، ويدعو بدعوات مماثلة لدعواته عند شباك النبي ﷺ ، وتكون الدعوات هذه المرة لأبي بكر ، ثم يرجع الزائر إلى الرواق ويصلي صلاة أخرى قصيرة ، ثم يقوم إلى الشباك الثالث في الجانب نفسه ، ويقف في الموقع الذي يواجه قبر عمر ، ويردد دعوات مماثلة ، وعندما ينتهي من هذه الشعائر يدور حول الركن الجنوبي الشرقي من الحجرة ليقف أمام قبر ستنا فاطمة ، ثم يؤدي صلاة من ركعتين ويوجه الابتهالات إلى فاطمة الزهراء ،

(١) هذا من أخطاء بركهارت أيضًا ، وربما وقع فيه بسبب ما رآه من بعض العامة آنذاك ؛ فالزيارة هنا للسلام على رسول الله ﷺ ، أما الدعاء والتوسل فلله وحده . (الباحث) .

ويعود الزائر بعدها إلى الروضة ، ويتلو دعوات موجهة للإله ، ويغادر المسجد ، وبذلك تنتهي شعائر الزيارة التي تستغرق عشرين دقيقة على الأكثر .

وفي كل موقع يدعو فيه الزوار يجلس على الأرض بعض الناس ويبسطون أمامهم مناديل ليلقي فيها الزوار عطاياهم ، ويبدو أنها نوع من الرسم المفروض أكثر مما هي صدقة ، وسوف يجد الزائر الحسن الهيئة حرجاً في أن يشق طريقه دون أن يدفع تلك الضرائب ، ومقابل شباك ستنا فاطمة تجلس مجموعة من النساء (حيث إن فاطمة امرأة) يتلقين الأعطيات أيضاً ، ويقف الخصيان - أو رعاة المسجد - في الروضة بانتظار أن ينتهي الزائر من آخر دعواه إلى الله ، ويباركون له إكمال الزيارة ، ويتلقون مكافآتهم ، كما تزدحم البوابة الكبيرة والمسماة باب السلام بالفقراء الذين يشددون الحصار على الزائر عند خروجه من المسجد ، وكذلك ينتظر البواب دوره أن يُقدَّم له حقه .

ولقد كلفتني الزيارة بأكملها حوالي خمسة عشر قرشاً ، كما أعطيت مرشدي (المزور) عشرة قروش ، وربما كان من الممكن أن أدفع نصف هذا المبلغ وحسب .

وبمقدور الزوار أن يكرروا هذه الشعائر كما يشاءون ، ولكن قليل من يفعل ذلك ، ويكتفون بزيارتين ؛ واحدة عند الوصول إلى المدينة ، وأخرى قبل مغادرتها ، ولكن من الطبيعي أن يذهب الزائر قبالة الشباك المواجه لقبر محمد ﷺ مرة في اليوم على الأقل ، ويدعو بدعوات قصيرة ، وكثيراً ما يفعل الناس ذلك كلما دخلوا المسجد ، كما أنه من المعتاد ألا يجلس امرؤ في انتظار أي من الصلوات اليومية قبل أو يوجه توسلاته إلى النبي ويداه مرفوعتان ، ووجهه نحو القبر[1] ، وينتشر هذا العرف في مساجد أخرى كثيرة في الشرق تحوي قبوراً لأولياء الله الصالحين ، وعلماء الدين الإسلامي ، ويؤكد الناس هنا أن الدعوات التي تقال في مسجد المدينة بصفة خاصة يستجيب لها الله ، ويدعون الحجاج للزيارة ، ويخبرونهم أن صلاة واحدة تؤدى عند الحجرة لها أجر ألف صلاة في مسجد آخر[2] عدا مسجد مكة .

(١) هذه التقاليد مما شاع بين العامة ولا أصل له في الشريعة ، ولا يجوز على الإطلاق . (الباحث) .

(٢) في الصحيح : صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

وكما ذكرت من قبل إن جوانب المسجد الشمالية والشرقية وجزءاً من الجانب الغربي ليست جيدة البناء - على الإطلاق - مثل الجانب الجنوبي الذي توجد فيه الحجرة والروضة ، فالأعمدة في تلك الجوانب أقل سمكًا ، ورسومها أقل إتقانًا ، ورصيف الأرضية خشن ، والجدران مطلية باللون الأبيض ، وليست فيها أية زخرفة .

غير أن في الجانب رسومات تلفت الانتباه ؛ لكونها تقليداً غير متقن لرسومات المساجد الشهيرة في العاصمة (القسطنطينية) : أياصوفيا والسلطان أحمد ، وبيايزيد ، وهي مرسومة بألوان مائية فوق الحائط الأبيض دون الاهتمام بوقع منظرها على العين .

والجانب الشمالي بعامة تحت الصيانة حاليًا ، وقد أزيل رصيف الأرضية القديم لوضع رصف جديد أفضل منه .

والساحة المكشوفة الواقعة بين الأروقة الأربعة غير مرصوفة مغطاة بالرمل والحصى ، وفي وسطها مبنى صغير له سقف عقدي تحفظ فيه مصابيح المسجد ، وبقربه ساحة صغيرة مسورة بسياج خشبي قليل الارتفاع ، وبداخلها بعض أشجار النخيل التي يحترمها المسلمون ، ويقال : إن فاطمة زرعتها بيدها ، وتوجد شجرة أخرى لم يبق فيها إلا جذعها ، وأظنها شجرة نبق أو لوتس ، وبجانبها بئر يقال إنه بئر النبي ﷺ مياهه مالحة ، وقد يكون هذا السبب في عدم اكتسابه أية قداسة ، ويذكر السمهودي أنه يسمى (الشامي) .

وفي المساء توقد المصابيح على امتداد الأروقة ، ولكنها تكثر في الرواق الجنوبي ، وهي تتدلى من أعمدة حديدية تمتد من عمود (حجري) إلى آخر ، ومن مهام خصيان المسجد وخدمه إيقادها ، ويمكن لزوار المسجد أن يساعدوا في هذه المهمة إذا دفعوا تبرعات صغيرة للخدم ، ويتلهف كثير من الحجاج الأجانب على هذه المهمة ، ويعتقدون أنها تجلب الثواب ، ويشجعهم الخصيان على أدائها ، ولكن لا يسمح للزوار إطلاقًا بإيقاد المصابيح التي في

صحيح البخاري ، كتاب الصلاة ، باب فضل الصلاة في مسجد مكة والمدينة ، رقم ١١٩٠ . ومسلم ، كتاب الحج ، باب فضل الصلاة بمسجدي مكة والمدينة ، رقم ١٣٩٤ . (الباحث) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

داخل الحجرة ، وهناك شموع ضخمة على جانبي المنبر وكل من المحـرابين ، ارتفاعها اثنا عشر قدمًا ، وسمكها بسمك جسم رجل ، ويستخدم سلم يوضـع بجوارها لإيقادها ، وتجلب هذه الشـموع مـن القسـطنطينية ، كمـا أن زوجـة محمد علي باشا التي تزور المدينة حاليًا أحضرت معها عددًا من هذه الشـموع الضخمة ، وقد نُقِلَت من ينبع إلى المدينة بصعوبة .

وللمسجد أربعة أبواب هي :

١ - **باب السلام** ،وكان يسمى باب مروان كما ذكـر السـمهودي ،ويقـع فـي الـركن الجنوبي الغربي ، وهو الباب الرئيس الذي ينبغي على الحاج أن يدخل منـه في زيارته الأولى للمسجد ، وهو بوابة جميلة يعلوها عقد أفضل بكثير مـن أبواب المسجد الكبير بمكة رغم أنه أصغر من بعضها ، وهو أجمل من أي باب مسجد رأيته في الشرق ، وجوانبه مرصوفة بالرخام والـبلاط اللامـع ذي السطح الزجاجي (السيراميك) المتعدد الألوان ، وبها رسومات بـارزة مذهبة ، وكذلك فوق العقد وعلى جوانبه ، الأمر الذي يكسبه مظهرًا شديد التألق ، ومقابل هذه البوابة توجد نافورة صغيرة تملأ بمياه القناة ، يتوضـأ فيها الناس عادة إذا لم يتوضأوا داخل المسجد نفسه حيـث توجـد جـرار مخصصة لذلك .

٢ - **باب الرحمة** : وكان يسمى باب عاتكة ، ويقع في الجدار الغربي ، وهو الذي تدخل منه نعوش الموتى للصلاة عليهم .

٣ - **باب الجابر**، ويسمى أيضًا باب جبريل .

٤ - **باب النساء** ، وهما في الجدار الشرقي للمسجد ، وهذا أقرب الأبـواب إلـى قبر ستنا فاطمة ، أما الباب الآخر - باب جبريل - فهـو أبعـد قلـيلاً عـن القبور .

وتوجد عدة درجات تصل بين أبواب المسجد والشوارع التي تجاورها ؛ لأن مستوى المسجد أعلى بقليل من مستوى الشوارع ، عكس ما هو الحال عليه في مكة ، وتغلق الأبواب دائمًا بعد غروب الشمس بـثلاث سـاعات تقريبًـا ، ولهـا مصارع قابلة للطي ، وتترس من الخارج بالحديد ، ويعاد فتحهـا قبـل الفجـر

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

بساعة تقريباً ، لكن يستطيع من يريد أن يقوم الليل كله مصلياً في المسجد أن يحصل على إذن بذلك من الخصي المكلف بالحراسة ، والذي يبيت قرب الحجرة ، وفي شهر رمضان يظل المسجد مفتوحاً طوال الليل .

وعلى الجانبين الشمالي الغربي والشمالي عدد من الأبواب الصغيرة تؤدي إلى المسجد ، وكانت تخص المدارس العامة الملحقة بالمسجد ، ولكن لم يعد لها شأن حالياً ، ويجلس المدرسون في هذا الجانب وحولهم الصبيان في حلقات يعلمونهم مبادئ القراءة والكتابة .

ويقوم ما بين أربعين إلى خمسين خصياً بحراسة المسجد وغسل الحجرة وبقية أجزاء المبنى وإضاءة المصابيح ونحو ذلك من الرعاية ، ولهم جمعية تشبه التي لخصيان بيت الله في مكة ، غير أنهم هنا أكثر أهمية ، فملابسهم أكثر ثراء ويلتزمون بزي واحد ، فيرتدون عادة شالات من الكشمير المميز ، وأثواباً من أفخر أنواع الحرير الهندي ، وينم مظهر أحدهم على أنه شخص فائق الأهمية ، ويهرع الجميع إلى تقبيل أيديهم حين يمرون بالسوق ، ولهم نفوذ كبير وتأثير في شؤون البلدة ، ويحصلون على رواتب سنوية ضخمة تُرسل إليهم من القسطنطينية مع قافلة الحج السورية ، ويستفيدون من التبرعات التي تقدم للمسجد ، ويتوقعون من كل حاج ثري أن يقدم لهم هدية ، إضافة إلى ما يأخذونه من زوار الحجرة ، ويعيش الخصيان جميعهم في أفضل أحياء المدينة شرقي المسجد ، ويقال إن أثاث بيوتهم أفخم من أي أثاث آخر في المدينة ، والبالغون منهم جميعاً متزوجون من إماء سوداوات أو حبشيات .

وهؤلاء الخصيان على عكس الخصيان السود في أوربا أجسامهم نحيلة ، وملامحهم شديدة القسوة ، لا يرى المرء في وجوههم إلا العظام ، وأكفهم تشبه كفوف الهياكل العظمية ، ومظهرهم بأكمله يبعث على الازدراء ، وهم يخفون نحول أجسامهم بارتداء ثياب سميكة ، غير أن العظام البارزة في وجوههم شديدة الوضوح ، يدركها المرء لأول نظرة ، ورغم ذلك فإن أصواتهم لا تختلف إلا قليلاً عن أصوات الرجال العاديين ، وقد لا تختلف على الإطلاق ، وهي أبعد ما تكون عن النبرة الأنثوية الرقيقة ، كتلك التي تثير الإعجاب في المغنين

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الإيطاليين ، ويُلقب كبير الخصيان بشيخ الحرم ، وهو في الوقت نفسه رئيس المسجد والشخصية الأولى في البلدة ، وأعلى مرتبة بكثير من (الآغا) كبير خصيان مكة ، ويرسل في العادة من القسطنطينية ، ويكون من حاشية السيد الأعلى (السلطان) الذي يرسله إلى هنا على سبيل العقوبة أو النفي[1] ، مثلما يعاقب الباشوات بإرسالهم إلى جدة ، وشيخ الحرم الحالي هو كسلر أغاسي ، وكان مشرفًا على نساء السلطان سليم ، ومنصبه من أهم المناصب في بلاد السلطان ، ولا أدري هل مكانته العالية الآن بسبب وظيفته السابقة ؟ فكثيراً ما يحتفظ علية القوم في الشرق برتبتهم مدى الحياة ، حتى ولو عزلوا من مناصبهم ، أو بسبب رفعة منصبه الحالي (شيخ الحرم) ، والمهم أنه يتقدم على طوسون باشا في جميع المناسبات ، وطوسون باشا هو والي جدة وتوابعها الثلاث (مكة والمدينة والطائف) ، فطوسون باشا يقبل يده كلما التقيا ، وقد رأيته يفعل ذلك في المسجد ، ولشيخ الحرم حاشية تماثل في تركيبها حاشية الباشوات ، وإن كانت أقل عدداً بكثير ، وقد وصف (دوسون) في كتاباته ملابسه بدقة كبيرة ، وتتألف من سترة طويلة من الفراء أو أطرافها مزركشة بالفراء ، فوق ثوب موشى من الحرير الفاخر مفصَّل على الطراز المعروف في

العاصمة ، وخنجر مرصع بالماس مغروس في نطاقه ، وقبعة صغيرة من القماش

(قاوق) مشدودة بشريط إلى أسفل الذقن تعلو رأسه ، ويملك الشيخ الحالي اثني عشر حصاناً ، وعندما يخرج يتقدمه عدد من الخدم أو الفراشين المسلحين بهراوات ضخمة .

وقد احترم الوهابيون شخصية شيخ الحرم ، وسمح لهم (الأمير)[2] أن ينسحبوا إلى ينبع مصطحبين زوجاتهم وأمتعتهم وممتلكاتهم النفيسة ، ولكنه رفض

(١) هذا غير صحيح ؛ فشيخ الحرم كان منصبًا تنقطع دونه الرقاب . (الباحث) .

(٢) ويقصد أمير المدينة في الدولة السعودية الأولى عندما انضمت المدينة إليها عام ١٢٢٠هـ . (الباحث) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

أن يحضر شيخ حرم آخر ، فانتخب الخصيان وقتها واحداً منهم ليرأسهم ، وبعدها بثماني سنوات أرسلت القسطنطينية رئيسهم الحالي ، غير أن نفوذه وتدخله في شؤون المدينة قد تقلص ، وأصبح ظلاً لما كان عليه صاحب هذا المنصب من قبل .

ولو أن شخصاً ما خاطب الخصي بكلمة خصي فإن ذلك يعد إهانة كبيرة ، فلقبهم المعتاد هو (الآغا) ويخاطب كبيرهم بلقب (صاحب السمو) أو (سيادتكم) مثل الباشا أو شريف مكة .

وإضافة إلى الخصيان يُعَدُّ من خدم المسجد بعض سكان المدينة ، ويسمون الفراشين ، وهذه التسمية تدل على أن عملهم هو المحافظة على نظافة المسجد وفرش بسطه على الأرض ، ويقوم بعضهم بإضاءة المصابيح وتنظيف الأرض مع الخصيان ، وبعضهم الآخر تدر عليهم هذه الوظيفة دخلاً مجانياً دون أن يقوموا بأي عمل ، وينتمي إلى هذا النوع عدد من كبار أهل المدينة ، ولا أعرف كيف يحصلون على هذه الوظيفة ، وأحسب أنهم يشترونها من شيخ الحرم ، حيث تسجل أسماء الفراشين في قائمة ترسل إلى القسطنطينية ، ويشترك المسجلون جميعاً في المبالغ التي تتلقاها المدينة من العاصمة ومن جميع أنحاء الإمبراطورية العثمانية ، ويُخصص جزء منها للفراشين ، ويبدو أن هذا المنصب وراثي ، وعلى الأقل يُنْقَل من الأب إلى ابنه ، وعدد الفراشين ثابت على خمسة آلاف فرد ، ولزيادته - كما ذكر دوسو - يلجؤون إلى حيلة ؛ فيقسمون المنصب الواحد إلى حصتين أو ثلاثة وحتى الثمانية ، وتُمنح الحصة لفرد ما ، فيصبح عضواً في المجموعة ، ولكن في مرتبة أدنى ، وكثير من هؤلاء الفراشين ليسو من سكان المدينة ، فقد مُنح هذا اللقب لعدد من كبار الحجاج المنتشرين في جميع أنحاء الإمبراطورية ، والذين يعتقدون أن هذا اللقب تكريم كبير لهم .

ويعمل كثير من الفراشين - إضافة إلى مهنتهم هذه - مرشدين أو مزورين ، ويرتلون الأدعية لغير الحاضرين ، وهذه مهنة تدر ربحاً وفيراً جداً ، فعندما يزور المدينة حجاج ذوو مكانة رفيعة يكون هؤلاء مرشديهم في زيارة الأماكن

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

المقدسة ، فيتعرفون عليهم ، وعندما يرجع أولئك إلى ديارهم يعدون من التقوى أن يرسلوا إليهم مبلغًا من المال كل سنة ، ويلتزم هؤلاء بالدعاء لهم نيابة عنهم أمام الحجرة النبوية ، وتُجمع هذه المبالغ في كل قطر أو مدينة في الأناضول القسم الأوربي من الدولة العثمانية ، وتُلَفُّ بأوراق خاصة مختومة على كل منها الاسم والعنوان ، وترسل مع كاتب الصرة الذي يصاحب قافلة الحجاج ، ويكون مسؤولاً عن شؤونها المالية ، ويحتكر بعض الفراشين مقاطعات ومدنًا بأكملها ، وكل من يأتي منها إلى المدينة يرسله مواطنوه إليهم ، كما أن لغيرهم مندوبين منتشرين في جميع أنحاء الإمبراطورية ، ويحصلون على أرباح كبيرة تشبه الأرباح التي يحصل عليها قساوسة الكنيسة الكاثوليكية مقابل قراءة القداس ، وسمعت أن لبعض كبار الفراشين ما بين أربعمائة إلى خمسمائة مندوب منتشرين في أنحاء الدولة العثمانية ، يتقاضون رواتب سنوية ، وأقل راتب يبلغ زيخين من زيخات البندقية[1] .

وعدد الفراشين والمزورين كبير جداً ، ومهماتهم سهلة جداً ، حتى إنهم يُعَدُّون طبقة عاطلة إلى حد كبير ، وقد أوقفت امتيازاتهم أثناء حكم الوهابيين ، ولما كان عدد الزائرين قد تقلص كثيراً في ذلك الوقت ، فقد عانوا من الضنك والشدة ، غير أنهم بدأوا ينتعشون الآن تدريجياً ، ويشكون من أن انقطاع دخلهم السنوي تلك المدة الطويلة جعل كثيراً من زبائنهم يحبسون هداياهم ، وقد عاد الاتصال بهم عن طريق القوافل ، ولكن يبدو أن أولئك لم يعودوا متحمسين لإرسال الهدايا ثانية .

وتمنع مبادئ المذهب الوهابي أتباعه من زيارة قبر[2] النبي ﷺ أو الوقوف أمام حجرته والتوسل إليه طلباً لشفاعته من السماء ؛ لأنهم يعدون محمداً ﷺ مجرد إنسان فان ، ولا يستحق قبره أي اهتمام خاص ، وكان استيلاء الأمير

(١) العملة التي كان يتعامل بها أهل البندقية . (الباحث) .

(٢) سبقت الإشارة إلى أن مصطلح الوهابية والوهابيين يستخدمه المؤلف للدلالة على أتباع الشيخ محمد بن عبد الوهاب . وليس لهؤلاء مذهب بهذا الاسم ، والشيخ محمد بن عبد الوهاب كان من أتباع مذهب الإمام أحمد بن حنبل ، وأما أنهم يمنعون زيارة قبر رسول الله ﷺ فهذا غير صحيح ، ولكنهم يمنعون التطرف والمغالاة التي قد تصل بصاحبها إلى حد الشرك . (الباحث) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

سعود على كنوز الحجرة نابعًا من معتقداته الدينية المتشددة[١] ، ومن حبه للغنيمة ، ورأى أن من غير اللائق - سواء من حيث الأصول أو من حيث التواضع - تزيين القبر بتلك الكنوز ، أما القبر نفسه فلم يمسه ، وقد انصاع لمشاعر العرب ، وربما يكون استجاب لصوت ضميره الذي لا يمكن أن يكون قد تخلص نهائيًا من مبادئه الأولى ، فلم يزل الكسوة عن القبر ، ولا الستار الذي يحوطه ، ويروى أنه رأى في منامه رؤيا أفزعته ، وأمسكت يده التي اعتادت الاستهتار بما يقدسه آخرون ، وقد احترم قبر فاطمة أيضًا ، لكنه أزال جميع المباني المقامة على القبور الأخرى دون استثناء ؛ حيث يرقد كبار الصالحين ، ودمر الأحجار المنحوتة والمزينة التي تعلوها ، وكان يؤمن أن الحجارة البسيطة تكفي لتغطية رفات الميت[٢] .

وعندما منع الوهابيون زيارة القبر لم يفكروا البتة في منع زيارة المسجد لأنه الصرح الذي شيده النبي بعد هجرته من مكة حيث أرسى دعائم الإسلام الأولى ، ويُعَدُّ أقدس بقاع الأرض بعد بيت الله الحرام في مكة ، ومرة أصدر الأمير سعود أوامره بمنع الحجاج الأتراك الذين كانوا يتدفقون من ينبع حتى بعد انقطاع القوافل المنتظمة من دخول المدينة كلها ؛ ليمنع ما أسماه أدعيتهم الوثنية التي لم يكن من الممكن منعهم منها إلا بمنعهم من دخول المسجد ، ولما كان من غير اللائق منعهم من دخول المسجد فقد أمر بمنعهم من دخول المدينة بأسرها بحجة أن سلوكهم غير السوي اقتضى هذا الإجراء ، وكثيرًا ما كان يقوم مع جمع من أصحابه بزيارات خاشعة للمسجد ، وقد نص صراحة في معاهدة السلام التي أبرمها ابنه عبد الله مع طوسون باشا عام ١٨١٥م بأن يسمح للوهابيين بزيارة مسجد النبي ﷺ دون مضايقة - وليس زيارة قبره - .

وتعد زيارة القبر والمسجد حتى عند المسلمين العاديين عملاً يستحق الثواب ، ولا علاقة له بشعائر الحج المفروضة ، وهي مثل زيارة المسجد الأقصى بالقدس ، وزيارة قبر إبراهيم بجيرون ، حيث تعد هذه الزيارات أعمالاً

(١) سبق بيان هذه القضية في إحدى الحواشي السابقة . (الباحث) .

(٢) هذا هو الأصل في الشريعة . (الباحث) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

يحبها الله ويكفر بها الخطايا ، كما تضمن هذه الزيارات شفاعة النبي ﷺ ، (وهو سيد أهل الجنة) ، ويقال : إن من يصلي أربعين صلاة في هذا المسجد تُكتب له النجاة من نار جهنم ومن عذاب القبر .

ولما كان الكثيرون يقدسون الأولياء أكثر من تقديسهم الإله ذاته ؛ لأن الله لا يقبل إلا توبة مخلصة وضميراً نقياً - وليس من السهل تحقيق ذلك - فإن زيارة المدينة تصبح مماثلة لزيارة مكة في الأهمية والتقدير ، ويتزاحم الناس على القبر بلهفة وحماسة تفوق تزاحمهم على الكعبة ، وتأتي أفواج الحجاج من جميع أنحاء العالم إلى المدينة طوال العام عن طريق ينبع عادة ، ويبدو أن الحجاج المغاربة أشد الناس حماسة للزيارة ، وثمة هدف آخر يزورون المدينة لأجله أيضاً ؛ فالمدينة تضم قبر الإمام مالك بن أنس مؤسس المذهب المالكي الذي يعتنقه المغاربة .

وتزور النساء الحاجات المسجد في مكة يومياً ، ولهن مكان خاص فيه ، أما في المدينة فتعد زيارتهن للمسجد عملاً غير محتشم ، والنساء القادمات من الآفاق يزرن المسجد في الليل بعد صلاة العشاء ، ولا تكاد نساء المدينة يعبرن عتبة المسجد ، وقد أكدت لي صاحبة المنزل الذي سكنت فيه - وهي سيدة عجوز - أنها عاشت قرب المسجد خمسين عاماً ولم تدخل حرمه إلا مرة واحدة ، وأنه لا تجرؤ على الصلاة فيه إلا النساء غير المحتشمات ، وبصورة عامة ؛ من النادر أن ترى النساء في المساجد في الشرق ، رغم أنه لا حظر على دخولهن ، وأحياناً يجد المرء عدداً قليلاً منهن في أكثر الأماكن قداسة ؛ كالجامع الأزهر في القاهرة حيث يشكرن الله على نعمة أنعم بها عليهن ، وكن قد نذرن من قبل أن يشكروه عليها بهذه الطريقة (بزيارة الأزهر) وحتى داخل بيوتهن فإنهن نادراً ما يصلين[1] ، باستثناء النسوة العجائز الورعات ، وتعد ميزة للمرأة أن تحسن الصلاة وأن تحفظ بعض سور القرآن عن ظهر قلب ، وحيث إن المرأة في الشرق تعد مخلوقة من درجة أدنى ، حتى إن بعض مفسري

(١) هذا غير صحيح ؛ فالمرأة المسلمة مكلفة وملتزمة بالصلاة بعامة . (الباحث) .

القرآن ينكرون إمكانية دخولهن الجنة ؛ فإن أزواجهن لا يهتمون بأن يلتزمن بالشعائر الدينية بجدية ، بل إن كثيراً منهن يكرهون ذلك ؛ لكي لا ترتفع منزلتهن وتصبح قريبة من منزلة أزواجهن .

ومن الملاحظ أن المرأة تعد زوجة مسيئة إذا استطاعت أن تطالب باحترام مكانتها ؛ لأنها تحافظ على صلواتها .

وليس في المسجد حَمَام مقدس مثل ذاك الموجود في مسجد مكة ، غير أن السجاد الصوفي المفروش فيه والذي يجلس عليه أكثر الأعراب قذارة بجوار أفضل الحجاج لباساً أصبح مسكناً سهلاً لملايين الكائنات الأخرى الأشد ضرراً من الحمام ، والتي تمثل وباء شديداً يهاجم جميع الزوار الذين ينقلونها من المساكن التي ينزلون فيها والتي تغص بالطفيليات والهوام .

وبما أن هذا المسجد أصغر من مسجد مكة ، والخصيان يحافظون بقوة على الأمن فيه ؛ لذا فإن المتسولين والعاطلين فيه أقل بكثير منهم في مسجد مكة ، ويبدو أيضاً أن قبر محمد ﷺ يلهم سكان المدينة قدراً من الرهبة والاحترام الديني أكثر ما تلهم الكعبة سكان مكة ، وهذه الإحساسات تمنعهم من زيارته دون دافع صادق أو لمجرد تمضية الوقت ، لذا فإن الالتزام بالحشمة والوقار فيه أشد مما هو عليه في بيت الله .

وكما هو الحال في مكة فثمة عدد من الخطباء والأئمة والمؤذنين والعلماء يعملون في المسجد ، ويقال إن علماء المدينة أعلم من إخوانهم علماء مكة ، وأن أسلافهم ألَّفُوا قديماً العديد من الكتب القيمة ، ورغم ذلك فإن مظاهر العلم قليلة حالياً في المدينة وأقل مما هي عليه في مكة ، فخلال زيارتي لم أر عربياً من أهل البلدة يُدَرِّس أي نوع من أنواع المعرفة ، ولم أجد إلا القليل من الحجاج الأتراك يشرحون بعض الكتب الدينية بلغتهم لعدد قليل من المستمعين ، ومقابل مبالغ زهيدة ؛ ليأمنوا نفقات عودتهم إلى بلادهم .

وكثيراً ما يحضر طوسون باشا تلك الدروس - وهو الوحيد من أفراد عائلته الذي لا يتسم بالإلحاد الظاهر - ويجلس في الحلقة مع بقية الحضور .

وسمعت أن بعض المحاضرات العامة تلقى في مدرسة الحميدية ، ولكن لم تتح لي الفرصة للتأكد من ذلك ، وأعتقد أنه لا توجد في الإمبراطورية العثمانية بلدة كبيرة بحجم المدينة ليس فيها دروس في المساجد ، ومما يؤكد أن المدينة نفسها كانت كذلك من قبل (أي مكانًا للعلم) وجود العديد من المنشآت الخيرية الدينية المقامة خصيصاً لهذا الغرض ، والتي يتلقى كثير من العلماء رواتب منها دون أن يأدوا واجباتهم إزاءها .

وللحرم المدني كما للحرم المكي الكثير من الممتلكات والمخصصات السنوية من جميع أنحاء الإمبراطورية ، ويوزع الدخل السنوي للمسجد على العلماء والخصيان والفراشين ، وتنفق المصاريف اليومية في الإضاءة والصيانة لتبرير إنفاق الدخل كله ، ولا يدخر في المسجد أية ثروة مالية عدا النفائس الموجودة في الحجرة ، وهذا يفيد أهل المدينة من جهتين ؛ حيث يحصل كل منهم على ما يحقق له حياة مريحة من جهة ، ومن جهة أخرى يجنبهم الأخطار التي يمكن أن تحدث نتيجة وجود مال مكنوز ، والغليان الداخلي الذي لا بد أن يقع لو علم الناس أنهم سيحصلون على ثروة إذا استولوا على المسجد .

لقد مضت الأيام التي كان يمكن فيها إيداع كنز عام في مكان له من القداسة ما يحفظه من أيدي المغتصبين .

ولا ينفق من واردات الأوقاف على الفقراء - للتخفيف عنهم - إلا الجزء الأقل ، ولا تنفق في تحقيق الأهداف التي أنشئت من أجلها ، وإنما تنفق لترفيه أسراب من المنافقين العاطلين الذين يحصلون على قدر بسيط من العلم ليشاركوا في الأرباح غير المشروعة التي يحصل عليها نظار تلك الأوقاف .

ويختنق المسجد بالمنازل الخاصة التي تحيط به من كل جانب ؛ كما هو الحال في جميع المباني العامة في الشرق ؛ حيث لا يفصلها عن المسجد في بعض الحواري إلا شارع واحد ، وفي بعضها الآخر تلتصق البيوت بجدران المسجد حتى تغطيه .

وترتفع ثلاث أو خمس ، نسيت العدد الدقيق ، مآذن فوق جوانب مختلفة من المبنى ، ويقال إن إحداها مبنية فوق المكان الذي كان يؤذن عليه بلال الحبشي مؤذن رسول الله ﷺ وأقرب أصحابه إليه داعياً المؤمنين للصلاة .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

كما أسلفت ؛ تحيط البساتين والمزارع بالمدينة من جهاتها الثلاثة ، وتمتد شرقًا وجنوبًا من ستة إلى ثمانية أميال ، وتتكون من غابات نخيل وحقول قمح وشعير . ويحيط بالحقول عادة أسوار طينية ، ويكون بداخلها مساكن صغيرة للفلاحين ، والبيوت القريبة من المدينة متقنة البناء غالبًا ، تضم بهوًا ذا أعمدة عند المدخل ، وحجرة جلوس يعلوها عقد جوار البهو وخزان مكسو بالحجارة أمامها ، وهذه بيوت صيفية لكثير من عائلات المدينة ؛ يقضون فيها شهرين من أشد أوقات السنة حرارة ، وأما بساتين النخيل فقلما تسور ، ومعظمها محاط بسور قصير طيني صنعته الأمطار والسيول ، وأراضي البساتين منخفضة جدًا ؛ حيث تؤخذ منها التربة وتكوم خلف الأسوار ، وتصبح الأراضي المخصصة للزراعة منخفضًا يشبه الحفرة ذات الجوانب العمودية ، عمقها عشرة إلى اثني عشر قدمًا تحت السطح السهلي ، والغرض من ذلك الوصول إلى طبقات أفضل من التربة ، وقد أدرك السكان بالتجربة والخبرة المكتسبة أن الطبقة العليا تكون مالحة وأقل ملائمة للزراعة من الطبقة السفلى ، ولا تستخدم في الزراعة هنا أية خبرات فنية ؛ فكثير من الأراضي فيها مساحات مهدورة ، حتى الأراضي التي تنظم على شكل حقول لا يكون تنظيمها اقتصاديًا ؛ فثمة بقع عارية تمامًا ، وملوحة التربة تحول دون انتاش البذور ، ويقال إن الأراضي القريبة من قباء قبلها وبعدها جنوبًا وشرقًا جيدة التربة ، ليس فيها أملاح ؛ لذلك فإن قيمتها تفوق قيمة الأراضي الأخرى المجاورة للمدينة ، وقد رأيت هذه الأراضي بعد سقوط الأمطار ، ووجدت قشرة ملحية تغطيها لعدة أيام ، بعضها صنعته المياه المتبخرة ، وبعضها جاء من التربة نفسها ، وخاصة في الأماكن المرتفعة التي لا يمكث فيها الماء ، ويملك أهالي المدينة معظم المزارع والبساتين ، وأغلب العرب الذين يزرعونها (ويسمون النواخلة) هم من المزارعين ، وملكية الأراضي على نوعين : ملك خاص ووقف ، ويكون الملك حيث تكون الأرض لفرد بذاته ، وأما الوقف فتكون الأرض فيه للمسجد (النبوي) أو لإحدى المدارس أو المؤسسات الدينية ، وفي هذه الحالة تؤجر إلى أفراد من أهالي المدينة لمدد طويلة جدًا كي يزرعوها ، ويقوم هؤلاء غالبًا بتأجيرها لمدد أقصر للمزارعين ، ولا يدفع أحد ضرائب على الأرض ، فليس هنا ضرائب من هذا

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

النوع ، وهذه حصانة فيما أعتقد كانت واحات الحجاز جميعها تتمتع بها قبل السيادة الوهابية .

وعندما استولى الوهابيون على المدينة فرضوا ضرائب على أراضيها - وفق النظام الذي يطبقونه - وقومت الحقول على أساس إنتاجها من التمر وليس الذرة ؛ حيث يتناسب عدد أشجار النخيل في كل حقل مع خصوبة تربته ، ويتناسب أيضاً مع محصول الذرة فيه ، وكان جامعو الضرائب يستوفون الحصة إما تمراً وإما نقداً ؛ حيث سعر السوق وقت تحصيل الضريبة ، وقد تسببت هذه الإجراءات في مشاعر معادية للوهابيين تفوق ما حصل في مكة التي لا يملك أهلها حقولاً تفرض عليها الضرائب ؛ حيث كانت الضرائب التي يفرضها الوهابيون تدفع لشريف مكة وعلى النحو الذي حسبت فيه من قبل ، كما أن المكيين الذين كانوا يعملون في التجارة استطاعوا أن يجنوا أرباحاً أكثر مما يحصلون عليه من خدمة الحجاج ، وأما سكان المدينة فعلى العكس ؛ فهم ضعفاء في التجارة ، ودخلهم الأكبر من خدمات الحجاج ومن الرواتب السنوية التي تصلهم من تركيا ومن الأراضي التي يمتلكونها ، وحيث إنهم حرموا المصدر الأول ، واقتطعت بعض أرباحهم من المصدر الآخر ، كما أن الوهابيين أبدوا تعظيماً لبيت الله في مكة يفوق بكثير تعظيمهم للقبر المبجل ؛ لذا لا يستغرب موقف أهل المدينة المعادي لهم .

والمحصول الرئيسي للحقول حول المدينة هو القمح والشعير وبعض البرسيم والفواكه ، والمحصول الأهم هو التمر .

وينبت الشعير بكميات أكبر بكثير من القمح ، ويعد خبز الشعير أحد أصناف الغذاء الرئيسية للأهالي الفقراء ، ويحصد الشعير في منتصف مارس ، والمحصول قليل عادة ، ولكنه ذو جودة عالية ، ويباع في سوق المدينة بسعر يزيد على سعر الشعير المصري بخمسة عشر في المائة تقريباً ، وتترك الحقول بعد الحصاد إلى العام التالي دون استثمار رغم وجود مياه كامنة في الآبار[1] لريها مرة أخرى ، فالتربة أفقر من أن تتحمل زراعة أخرى دون إنهاكها كلية ، ولا يزرع الشوفان هنا ولا في أي مكان آخر في الحجاز ، وتتجمع أشجار

(١) لكل حقل أو بستان بئر خاص به ، ترتفع مياهه في دلاء جلدية كبيرة تشدها الحمير أو الأبقار أو الجمال ، وأعتقد أنه لا توجد حقول تعتمد على الأمطار ولا تسقى من الآبار . (المؤلف) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

الفواكه قربة قرية قباء ، ويقال إن الرمان والعنب فيها ممتازان ولا سيما الرمان ، كما يوجد بعض الخوخ والموز والقليل من البطيخ وخضروات كالسبانخ واللفت والكراث والبصل والجزر والبازلياء ، ولكن بكميات قليلة جداً ، ويشيع في سهل المدينة وفي الجبال المحيطة بها شجر النبق الذي ينتج اللوتس ، وتجلب كميات ضخمة من ثماره إلى السوق في مارس ؛ حيث يأخذه الفقراء على أنه صنف رئيسي من الطعام ، غير أن المحصول الرئيسي للمدينة هو التمر ، ويشتهر بجودته العالية في الجزيرة العربية كلها ، وتوجد أشجار النخل إما في حقول مسورة يتم ريها مع بذور المزروعات الأخرى ، وإما في سهل مفتوح فتروى بمياه الأمطار وحسب .

وثمار النوع الآخر أغلى ، ولكنه أقل توفراً ، وتنمو أعداد برية من هذا النخل في السهل ، ورغم ذلك فإن لكل نخلة منها مالكًا ، وشجرة النخل هنا أصغر حجماً من شجرة النخل المصرية التي تغذيها التربة الخصبة ومياه النيل ، ولكن ثمرتها أكثر حلاوة من التمر المصري ، ورائحتها أطيب منه .

وقد ذكر عدد من الرحالة من قبل الاستخدامات الواسعة لكل جزء من أجزاء النخلة ، الأمر الذي يجعل مكانتها عند البدوي المستقر تفوق مكانة الجمل عند البدوي الأعرابي (المتنقل) .

وفي حديث لمحمد ﷺ يقارن بين الرجل المؤمن وهذه الشجرة الكريمة فيقول : (إنه يستقيم لربه ، يتبع وحي السماء في كل أفعاله وحياته كلها مسخرة لمنفعة رفاقه من الخلائق)[1] .

وكما هو الحال عند المصريين يستفيد أهل المدينة من أوراق النخلة ومن لحائها الخارجي والداخلي للجذع ، ومن المادة اللحمية التي تتشكل عند منبت الأغصان في الجذع ، يضاف إلى ذلك أنهم يستفيدون من نواة التمر غذاء لماشيتهم ؛ حيث ينقعونها بالماء مدة يومين فتصبح طرية ، ويطعمونها لجمالهم وأبقارهم وأغنامهم بدلاً من الشعير ، ويقال إن قيمتها الغذائية أعلى بكثير من

(١) قال رسول الله ﷺ : ((إن من الشجر شجرة لا يسقط ورقها ، وإنها مثل المسلم ، فحدثوني ما هي ؟ فوقع الناس في شجر البوادي . قال عبد الله : ووقع في نفسي أنها النخلة ، فاستحييت ، ثم قالوا : حدثنا ما هي يا رسول الله ، قال : هي النخلة)) ، رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب قول المحدث حدثنا أو أخبرنا ، رقم ٦١ . ومسلم ، كتاب صفات المنافقين ، باب مثل المؤمن مثل النخلة ، رقم ٢٨١١ . (الباحث) .

الشعير ، وفي المدينة حوانيت لا تبيع إلا النوى الذي يجمعه المدقعون (الشحاذون) من الشوارع الرئيسية ، ويطحن العرب في إقليم نجد النوى للغرض نفسه ؛ تغذية الماشية ، بينما لا يطحنه الحجازيون ، وفي المدينة أصناف عديدة من التمر ، وفي كل واد مثمر في هذه البلاد ولكل مكان أصنافه الخاصة التي لا تنمو في غيره ، وسمعت أن أكثر من مائة صنف من التمر تنمو في المدينة وضواحيها ، ويذكر مؤلف وصف المدينة مائة وثلاثين صنفاً ، وأكثر الأصناف شيوعاً وأرخصها ثمناً (الجبلي) وأعتقد أنه أكثرها في الحجاز كله ، والحلوة ، وهي ثمرة صغيرة جداً لا يزيد حجمها عن حجم ثمرة التوت الأرضي ، واسمها مأخوذ من حلاوتها الفائقة التي لا تقل عن حلاوة أفضل ثمار التين التي تزرع في سميرنه والتي تشبهها في ظهور قشرة سكرية عليها عندما تجف ، ويروي السكان هنا أن محمداً ﷺ ظهرت له معجزة كبيرة في هذه الشجرة ، فقد زرع نواة منها في الأرض فمدت جذورها في الأرض نوراً ونمت ، وأصبحت نخلة كاملة مليئة بالثمار خلال خمس دقائق ، ويروون معجزة أخرى عن نوع يسمى الصيحاني يقولون إنها سلمت على رسول الله ﷺ عندما مر بها بصوت مسموع قائلة : السلام عليكم .

ويعد (البرني) أكثر الأصناف فائدة ، وهو بالتأكيد أسهلها هضماً ، وقد فضله محمد ﷺ ونصح العرب أن يأكلوا سبع تمرات منه كل صباح قبل الإفطار[1] .

والجبلي أندر الأصناف ، يبلغ طول ثمرته ثلاثة بوصات (١٠ سم تقريباً) ، وعرضها بوصة واحدة تقريباً ، ومذاقها طيب جداً ، وإن لم يكن في حلاوة (الحلوة) ، ويبدو أن أشجارها نادرة ، فلا يوجد منها سوى مائة شجرة على الأكثر ، وهي أقل محصولاً من أي نوع آخر من النخل ، ولا ينمو هذا إلا في المدينة وغابات ينبع النخل .

(١) حديث ((من تصبح كل يوم سبع تمرات عجوة لم يضره في ذلك اليوم سم ولا سحر)) ، رواه البخاري في كتاب الأطعمة ، باب العجوة ، رقم ٥٤٤٥ . (الباحث) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

ويباع كيلو البرني بعشرين باره وفيه مائة وعشرون تمرة تقريباً ، بينما تباع ثمرات قليلة من الجبلي بهذا المبلغ ، ويشتد طلب الحجاج عليه عادة ليحملوه هدية ثمينة من مدينة النبي ﷺ لأصدقائهم في بلادهم ، وتصنع في المدينة صناديق صغيرة لهذا الغرض في كل منها حوالي مائة تمرة .

والتمر هو الغذاء الرئيسي الأول لفقراء المدينة ، ويترقب الناس موسم جنيه بلهفة وبهجة تشبه ما يشعر به مزارعوا جنوب أوربا في موسم جني العنب ، وإذا حدث وكان الموسم ضعيفاً - وكثيراً ما يحدث ذلك - فالنخلة قلما تعطي بوفرة ثلاث أو أربع سنوات متوالية ، وقد يأتي الجراد على الثمار ، فإن الناس يتكدرون كما لو كانوا يتوقعون المجاعة .

وهناك صنف من تمر المدينة - لا أذكر اسمه - يظل أخضر اللون وجافاً رغم نضجه[١] ، وصنف آخر لونه زعفراني دائماً ، ينظم في خيوط ويباع في جميع أنحاء الحجاز باسم (قلائد الشام) وكثيراً ما يرتديه الأطفال .

وتؤكل أولى ثمار التمر في بداية شهر يونيو/حزيران . وتسمى في هذه المرحلة من النضج (الرطب) ، لكن الموسم العام لجني التمر يكون في نهاية ذلك الشهر ، بينما يكون موسمه في مصر بعد ذلك بشهر ، ويعد العرب التمر للطعام بطرق عدة : الغلي باللبن/الحليب ، والقلي بالزبدة ، وتحويله إلى عجينة بغليه بالماء ، ثم يصب فوقه العسل ، ويقول العرب : إن ربة البيت الماهرة تقدم لزوجها طبقاً جديداً من التمر كل يوم لمدة شهر كامل .

ومن الشجر الكثير الشيوع في الحدائق شجرة الأثل ، وهي نوع من شجر الطرفاء تزرع للاستفادة من خشبها الصلب ؛ حيث تصنع منه سروج الجمال وجميع مقابض الآنية التي تحتاج لمقابض قوية .

وقلما تكون أرض المزارع مستوية تماماً ؛ فكثيراً ما تقلع من أرضها أكوام من الحجارة ، والبقعة التي على طرفي المدينة الشمالي الغربي والغربي صخرية بأكملها تحبط أية محاولة لاستصلاحها .

---

(١) جاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يقول : ((باسم الله ، تربة أرضنا ، بريق بعضنا يشفى سقيمنا ، بإذن ربنا)) ، صحيح البخاري ، كتاب الطب ، باب رقية النبي ﷺ ، رقم ٥٧٤٥ . (الباحث) .

والأرض الصالحة للزراعة هنا طينية يختلط بها غير قليل من الجير والرمال ، ولونها أبيض مشرب بالرمادي ، وتتكون في أماكن أخرى من تربة صفراء ومادة تشبه كثيراً جذع الفخار ، وتباع عبوات منها قمعية الشكل (مثلثة) طولها بوصة ونصف تقريباً ، ومجففة في الشمس ، ومعلقة بقطع من قماش الزينة لزوار المدينة ، ويروى أن محمداً ﷺ شفى بدوياً من بني حارث ، وآخر من بني نميرة من الحمى بماء مذاب فيه الصلصال ، ويتلهف الحجاج على حمل تذكار لهذه المعجزة إلى أوطانهم ، ويستخرج هذا الصلصال من خندق في مكان يسمى (الماشونية) قرب المدينة .

وتكسو جميع المناطق الصخرية ، إضافة إلى الحافة السفلى لسلسلة الجبال الشرقية طبقة من الصخور البركانية لونها أسود بزرقة ، مسامية ذات مسامات ، ورغم ذلك فهي صقيلة وقاسية وغير لامعة ، وكثيراً ما تحوي في مساماتها مواد بيضاء صغيرة بحجم رأس المسمار ، ولم أجدها متبلورة أبداً .

والسهل أسود اللون تماماً بسبب تلك الصخور والحجارة التي تنتشر فوقه ، ولم أصادف أية حمم بركانية رغم أن طبيعة الأرض تشير بقوة إلى وجود بركان قريب ، ولو أن حالتي الصحية جيدة لقمت ببعض الجولات القصيرة في المزارع الأبعد لاكتشاف أنواع المعادن في الأرض ، لكن إرهاقي الشديد في الأيام الأولى ، وانشغالي بوضع خريطة للمدينة وبجمع المعلومات من سكانها حال دون ذلك ، ولم أجد طوال إقامتي في المدينة وحتى عودتي إلى القاهرة ، ولا حتى في كتاب وصف المدينة الذي اشتريته من القاهرة ولم أجده في المدينة ومكة رغم بحثي عنه مَنْ سَجَّل وقوع زلازل وبراكين قرب المدينة في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي تقريباً وبعد السؤال علمت من رجل من أهل المدينة يقيم في القاهرة أن موقع نهر الحمم البركانية ما زال ظاهراً على بعد ساعة تقريباً شرقي المدينة ، بعدها لم أحصل على أية معلومات تجعلني أفترض أنني قرب أشد الظواهر الطبيعية إثارة .

ووفق هذه الرواية ينبغي البحث عن آثار الحمم البركانية على بعد ساعة شرقي المدينة ، وعلى الأغلب فإن الحمم البركانية التي تغطي الضواحي

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة

القريبة من المدينة والسهل في غربيها ترجع إلى انفجارات قديمة للبركان نفسه ؛ إذ لم يذكر في أخبار هذا البركان شيء عن صخور تشكلت في نهر الحمم الذي أخرجه البركان ، رغم أن السهل الممتد لمسافة ثلاثة أميال من غرب المدينة إلى وادي العقيق مغطى كله بآثار البركان ، ولا أشك في أن براكين أخرى قامت في مناطق عدة على امتداد هذه السلسلة الجبلية الضخمة ، ويؤيد هذا التخمين وجود عدد من ينابيع المياه الدافئة عند كل محطة من محطات استراحة القوافل في الطريق إلى مكة .

وتدفعني فقرة وجدتها أسفل الصفحات إلى تسجيل الملاحظة التالية[١] : تبعًا لأوامر محمد ﷺ الحازمة يُعَدُّ هذا الجزء من إقليم المدينة مقدسًا ، ويمتد في دائرة قطرها اثنا عشر ميلاً ، يحدها جبل عير جنوبًا ، وجبل ثور شمالاً (وهو جبل صغير يقع خلف جبل أحد مباشرة) ، ولا يجوز قتل إنسان فيها - عدا المجرمين والأعداء أو الكفار الذين يدنسون المنطقة ، أو في حالة الدفاع عن النفس - ، ولا يجوز الصيد أو قطع الأشجار ؛ فهو محرَّم ، ولكن هذا التحريم غير مطبق حاليًا ؛ حيث يحدث الصيد ، وتقطع الأشجار وتقع المشاجرات والمعارك الدامية داخل المدينة نفسها وبجوارها المباشر .

ورغم أنه لا يجوز دخول غير المسلمين من أبواب المدينة ، فقد حدث مرارًا أثناء مكوثي في المدينة (وفي ينبع) أن عسكر على بعد مرمى المدافع من المدينة يونانيون مسيحيون يعملون في جيش طوسون باشا ، ثم غادروا إلى مقر قيادة الباشا الموجود في القصيم آنئذ .

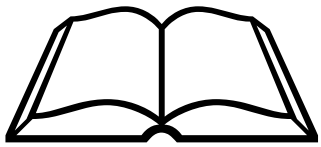

(١) يقصد حرم المدينة الذي حدده رسول الله ﷺ بقوله : ((المدينة حرم ما بين عير إلى ثور))، صحيح البخاري ، كتاب الفرائض ، باب إثم من تبرأ من مواليه ، رقم ٦٧٥٥ . (الباحث) .

المستودع الرقمي لمركز بحوث ودراسات المدينة المنورة